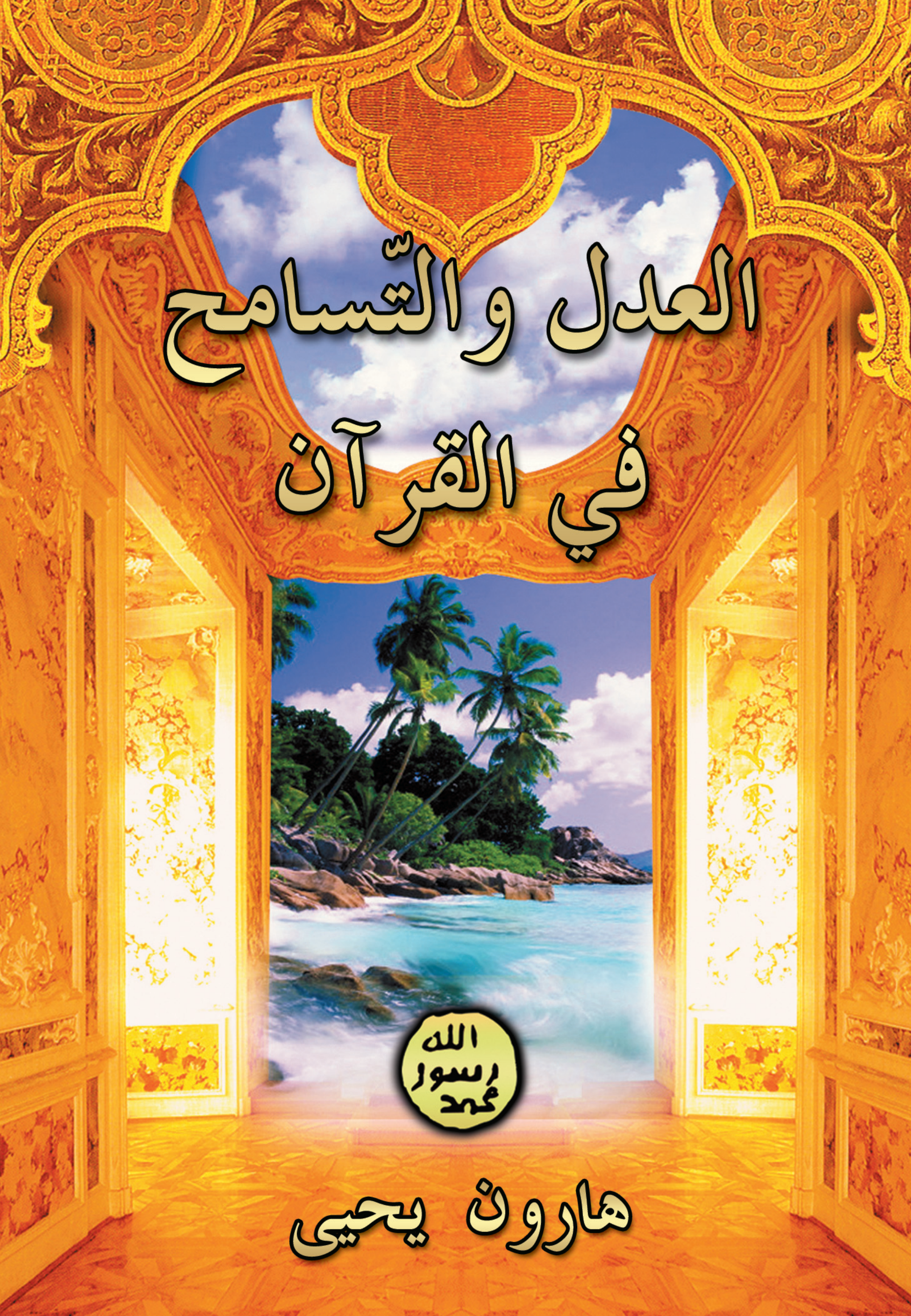

العدل والتّسامح
في القرآن
الله
رسول
محمد
هارون يحيى


بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد

عندما تقال كلمة العدل تتبادر إلى الأذهان المعانى نفسها، وهذه المعاني عموما مقبولة لدى أغلب الناس. وهذه الخاصية تشمل الجميع بدون استثناء، فبالرغم من الفوارق الموجودة بين البشر في اللغة والدين والعرق فهم يهدفون إلى جعل الحق هو الذي يعلو فوق القوة والعيش في عالم يملؤه العدل.

على الإنسان أن يقدّم مبادئ العدل إزاء العوامل التي تبعده عنه، وعليه أن يقدم هذه المبادئ حتى وإن تصادمت مع مصالحه الشخصية. ومن أجل تحقيق عدالة حقيقية على وجه الأرض يجب أن تنتشر الأخلاق التي تدفع الإنسان إلى ترك منافعه الخاصة في سبيل هذا المبدإ.

هذه الأخلاق هي الأخلاق التي علمنا إيّاها الله تعالى وأمرنا بها القرآن الكريم. ذلك أن هذه الأخلاق لا تقيم أيّ اعتبار للفوارق المختلفة، إنها تدعو إلى الوقوف فقط إلى جانب الحقّ والخير، أخلاق تأمر بالعدل بدون انتظار أيّ مقابل. وفي سورة النساء يأمرنا الله تعالى أن نسلك طريق العدل حتى وإن كان ذلك ضدّ أنفسنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء – ١٣٥]

ومثلما جاء في الآية الكريمة، فالعدالة الحقيقية هي التي تشمل جميع الناس دون أي اعتبارات أو فوارق، عدالة تنشد رضا الله تعالى وتخشى غضبه.

والغاية من الكتاب الذي بين أيديكم هو التعريف بالعدالة الحقّ الموجودة في القرآن الكريم.

حول الكاتب



ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى.

ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكّر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاونة لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفاً إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.



الدّفاع عن الفلسفات المادية والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عنادٍ عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمة القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب مادّي.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجرية أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.



حول المؤلف

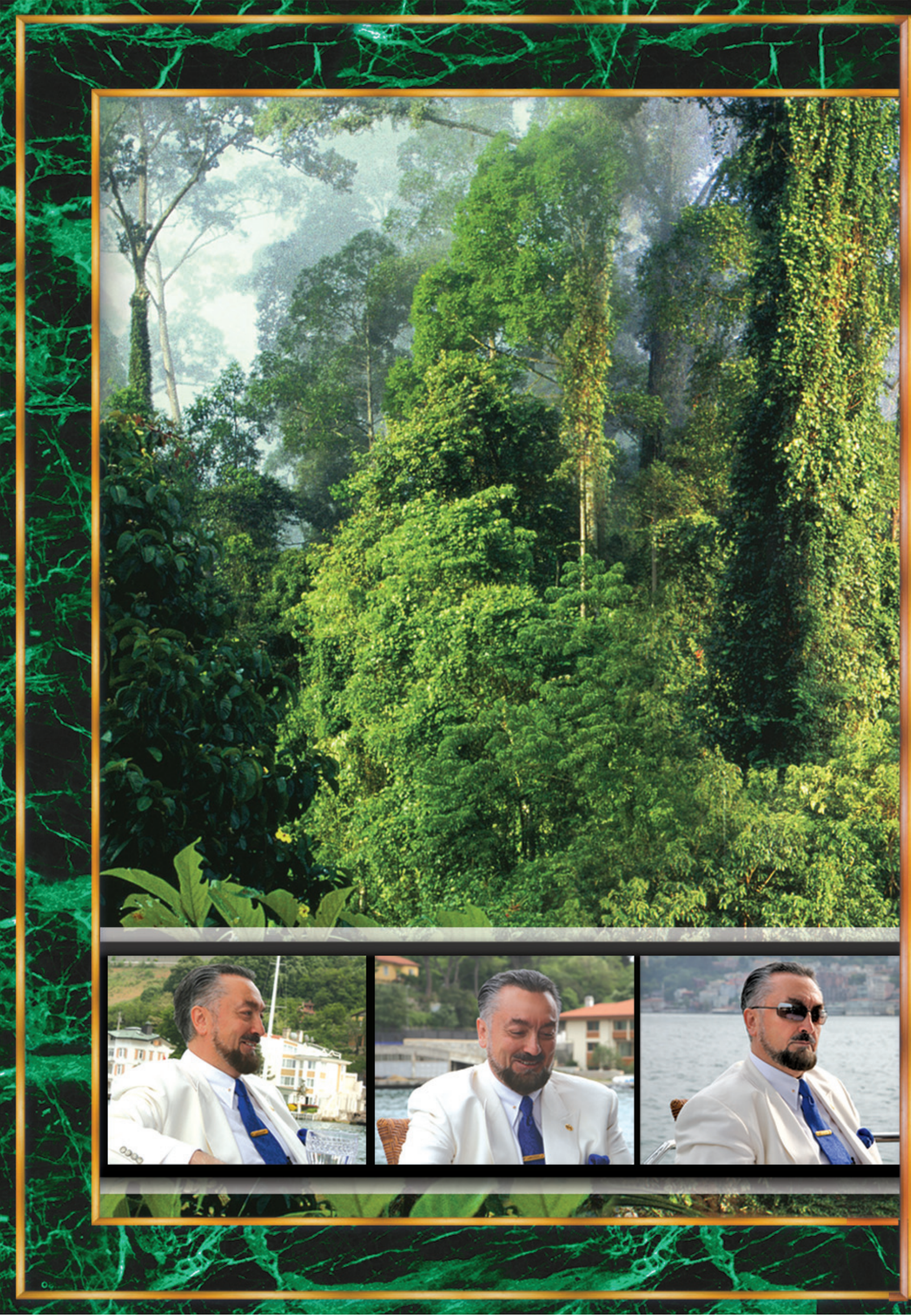
يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلانٍ عن أهدافه هذه.

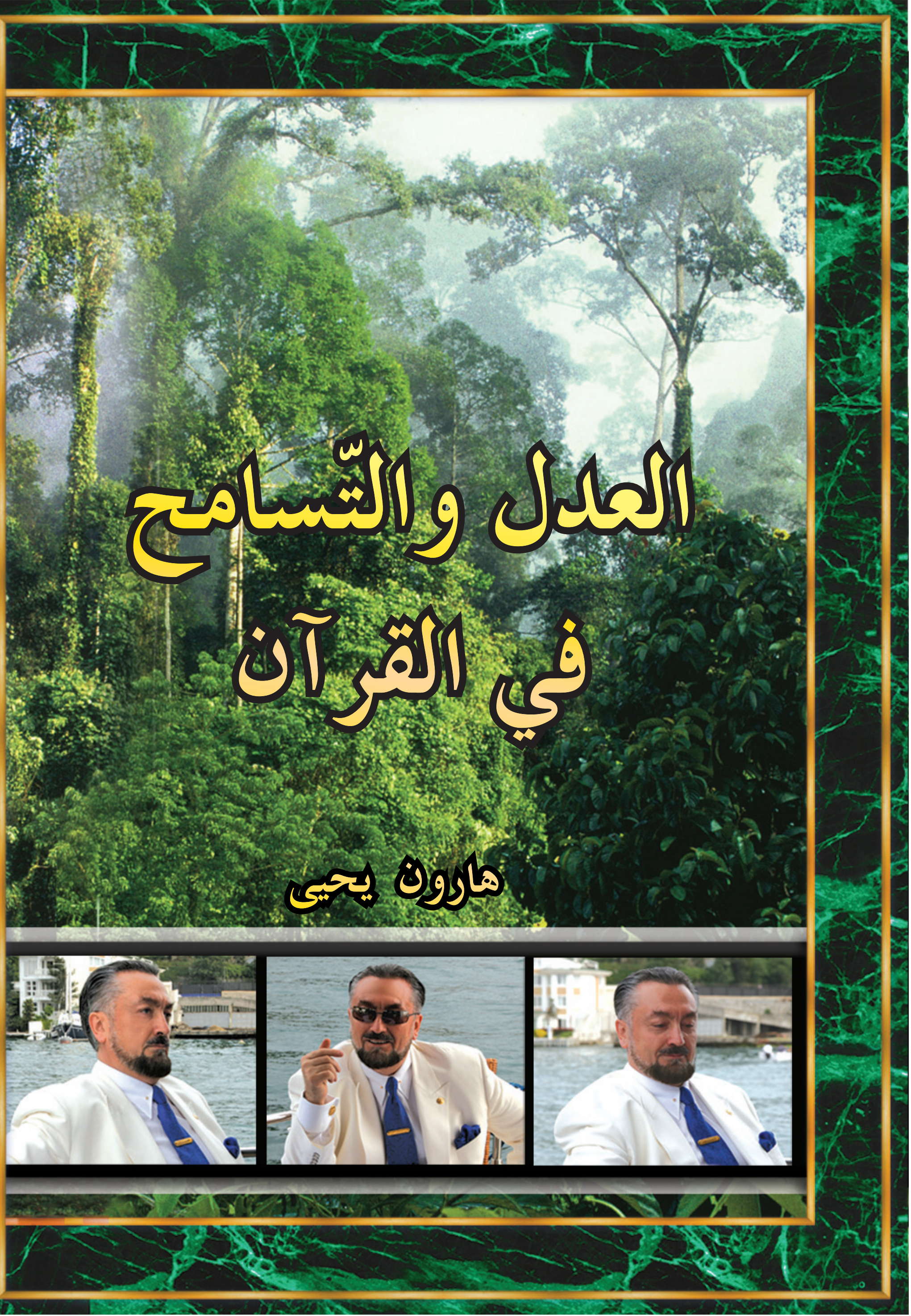
تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تبليغ نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيبولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك




العدل والتّسامح
في القرآن
هارون يحيى

لفهرس

إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعًا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسَّر فهم هذه الكتب من قِبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبًا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.

وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب – التي لم تؤلَّف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته – ونشرها بين الناس تُعَد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرَّة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.

لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدَّسة، ولا ما يجُر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.

مـــــقدّمة

في اللحظة التي تقرأ فيها هذه السّطور لا تزال الحروب مستمرة في أنحاء متفرقة من العالم؛ أناس يمُوتون، وأناس يُصابون بالإعاقات البدنية، وآخرون يضطرون لترك أوطانهم. وفي أجواء الثلج والأمطار يسير اللاجؤون مئات الكيلومترات، وهم يصارعون الجوع والعطش والأمراض. أما المسؤولون عن هذا البؤس فهم يواصلون حياتهم بضمائر مرتاحة، وينعمون بنوم هادئ على أسرة دافئة، ويأكلون ويشربون. وإذا نظرت اليوم إلى بعض دول العالم بصفة عامة فسوف ترى أن العدل قد أصبح مجرد أداة تحركها فئة قليلة ممن يتمتعون بالغنى المادي كيفما تشاء. ولو أنهم "رجعوا إلى العدل" لما وسعهم إلا أن يمدوا يد العون إلى المحتاجين. وفي أنحاء متفرقة من العالم تجد بعض الناس ينعمون بالرفاهية بسبب إساءة استخدام السلطة والمكاسب غير المشروعة واستغلال الفقراء. وفي الوقت الذي يُعاقَب فيه الأبرياء ينال هؤلاء المجرمون كل التقدير والإعجاب.

وباختصار فإن الظلم هو الذي يسود في بلدان كثيرة من العالم .

ما تبرير ذلك ؟ ألا يشعر الناس بالحاجة إلى الحكم بالعدل؟

حينما نتحدث عن العدل، فإنّ كل الناس يتفقون على المفاهيم

الأساسية التي يعرفونها ويقبلونها. هذا العدل سوف يشمل جميع الناس في شتى مناحي الحياة دون تمييز بينهم، وسوف يتم توزيع الموارد بالعدل بينهم، دون أي اعتبار للجنس أو الدين أو اللغة. وسيهدف إلى خلق عالم يسود فيه صاحب الحق لا صاحب القوة.

إن رفض الناس للعدل هو السبب وراء بعده عنه، فهم قد يوافقون عليه من حيث المبدإ، ولكنهم يرفضونه حين يتعارض مع مصالحهم. فمثلا، كل شخص يرفض الرشوة ويقر نظريا بأن أخذ الرشوة أمر لا أخلاقي، ولكن حين يواجهه عرض مغر للرشوة فإنه يختلق التبريرات منتهكا بذلك المبدأ الذي كان قد أقره نظريا.

ومثال آخر شبيه بذلك، أنّ الكلّ يعلم ويقر بأنّ لأقوال الشاهد الصادقة دور بالغ في معرفة الحقيقة وإقرار العدل، ومع ذلك فبعض الناس لا يتردد في أن يكذب في دور القضاء وأن يُضلل هيئة المحلفين أثناء شهادته حينما تتعرض مصالحه أو مصالح من يحبّه للخطر. هؤلاء النّاس يقبلون العدل كمبدأ، ولكنهم لا يجدون مانعًا يمنعهم من انتهاكه حينما يتعارض مع مصالحهم الشخصية. وهناك أيضا مثال آخر، فالكلّ متفق على أنّ الموارد العامة يجب أن توزع بالتساوي، ومع ذلك فحينما تُقام حملة للمساعدة، يحاول المتلقّون الحصول على حصة أكبر، حتى إنهم ليطئون الآخرين تحقيقا لذلك. وهنا أيضا، تحل المصالح الشخصية محل العدل.

الأمثلة كثيرة، ولكننا في النهاية نواجه الحقيقة نفسها؛ إنّ الناس ينتهكون العدل، حينما تتعرض مصالحهم الشخصية للخطر مع إيمانهم بأهميته. وبما أن هؤلاء الناس، بوعيهم هذا يمثلون الأغلبية في بعض المجتمعات؛ فإنّ العدل يبقى مجرد فكرة وهمية.

ولكي يتم إقرار العدل في العالم، فإننا بحاجة إلى الأخلاق التي تمكن الناس

من أن يطرحوا منافعهم الشخصية جانبا في سبيل ذلك العدل. وهذه الأخلاق هي القيم التي أمرنا الله تعالى بها في القرآن الكريم؛ لأنّ تلك القيم القرآنية تأمر بالعدل المطلق الذي لا يميز بين الناس، ولا ينحاز إلا إلى الحق والمساواة. وفي سورة النساءِ يأمر الله تعالى الناس أن يحكموا بالعدل ولو على أنفسهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِنْ تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء – ١٣٥]

وكما تنص الآية، فإنّ العدل الذي يتم تطبيقه مصحوبا فقط بتقوى الله تعالى وطلب رضاه هو العدل الحقيقي. هذا النوع من العدل لا يميز بين الناس, وحين يكون هذا العدل غاية الإنسان فلن يكون للمصالح الشخصية أو القرابة أو العداوة أو نظرته للحياة أو اللغة أو اللون أو الجنس أي تأثير على قراراته، وإنما يتّخذ القرارات على نحو مستقيم. ومن المؤكّد أن المجتمعات التي يحيا الناس فيها وفق قيم القرآن الكريم ينعمون بالعدل الحقيقي والسلام والأمن. والإنسان الوحيد الذي يمكنه إقامة العدل الحقيقي هو الذي يخشى الله تعالى ويؤمن بأنه سيُسأل يوم الحساب.

وإن التاريخ ليثبت هذه الحقيقة، ويخبرنا بها الله تعالى أيضا في قوله:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

[الأعراف – ١٨١]

وعلى مرّ التاريخ، كانت هناك أزمان ساد فيها العدل، فقد أسس الأنبياء مجتمعات آمنة، وكذلك فعل بعض تابعيهم من القادة العادلين ممن هم على شاكلتهم، واضعين بذلك للعالم نموذجا يحتذى به. وقد احتضن الأتراك السلاجقة أهل الديانات الأخرى وكذلك فعلت الدولة العثمانية، وعاشوا في كنفهم آمنين مطمئنين تحت راية واحدة. كما اشتهر عن الأتراك المسلمين عدلهم في البلاد التي تولوا زمام الحكم فيها. ونظرا لتسامحهم ومواقفهم الرحيمة كان أهل البلاد المفتوحة يستقبلونهم بالترحاب والفرح.

إنّ الهدف من هذا الكتاب هو تصوير العدل في القرآن الكريم. ولكن ينبغي على كل فرد أن يقتنع بأنّه لكي تتحقق مثل هذه الحياة التي يملؤها الأمن والسلام، فلا بد أن يبذل سعيه وجهده الخاص. ولكي تتحقق الحياة الآمنة التي تسعد فيها المجتمعات والأجيال القادمة فعلى كل فرد أن يقيّم العدل في نفسه، ومن ثم يكون مثالا يقتدي به الآخرون. وهذه فرصتك لتكون في طليعة أولئك الذين " يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ" [آل عمران: ٢١] ولا تنسَ أنّ " اللهُ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ" [المائدة: ٤٢].

الله تعالى يأمر بالعدل

العدل الحقيقي الموصوف في القرآن الكريم يأمر الإنسان أن يكون عادلا دون تمييز بين الناس، محافظا على حقوقهم، حائلا دون ظلمهم مهما كانت الأحوال، مساندا للمظلوم ضد الظالم، مساعدا للمحتاجين. هذا العدل يطالب بحفظ حقوق كلا الطرفين في حالات النزاع؛ حيث يقيِّم الحالة من شتى وجوهها، ويطرح المحاباة جانبا، فيكون بذلك موضوعيا، أمينا، متسامحا، عطوفا، رحيما.

وفى حالة ما إذا فشل في تحقيق أيّ من هذه الخصائص، فإنه من الصعب أن يقيم العدل الحقيقي. فمثلا، الشخص الذي لا يستطيع أن يقدِّر الأمور حق قدرها، بل تسيطر عليه مشاعره وعواطفه، سوف يفشل حتما في الوصول إلى قرار صائب، وسيظل أسيرا لتلك المشاعر. ومن جهة أخرى، فإنّ الشخص الذي يحكم بالعدل لا بدّ أن يتخلى عن تلك العواطف والآراء الشخصية، ولابد أن يعامل كل الأطراف بالقسط حين يطلبون المساعدة، وأن يقف مع الحق مهما كانت الأحوال، ويتعين عليه ألاّ يحيد عن الطريق المستقيم. فيجب على الإنسان أن يجعل القيم القرآنية منسجمة مع روحه، وهذا ما يمكّنه من أن يضع مصالح

الآخرين في اعتباره قبل مصالحه الشخصية, وأن يحافظ على العدل ولو أضرّ بمصالحه الشخصية. يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨]

الله تعالى عليم بأفعال الناس جميعا، كما نصت الآية السابقة. فالإنسان الذي يخشى الله تعالى ويعي بأنه سوف يُحاسب على أفعاله يوم القيامة يتصرف على نحو عادل ابتغاء مرضاة الله تعالى. فهو يعلم أنه سوف يُحكم عليه من خلال أقواله و أفكاره، ومن ثَمَّ يُكافأ وفقا لها يوم الجزاء.

ولهذا يجب على الإنسان أن يتمسك بالقرآن الكريم حتى ينال رضا الله تعالى، وينجو من عذاب النار، وينال نعيم الجنة الأبدي. ولكي يتمكن من هذا، فلابد أن يبذل الإنسان جهده الذاتي، تاركا رغباته الأنانية ومصالحه الشخصية جانبا، سالكا طريق العدل والتسامح والرحمة والسلام. ويعرض لنا الله تعالى في القرآن الكريم وصفا تفصيليا للعدل الحقيقي ويخبرنا بأنّ جميع أشكال النزاع يمكن حلها بإقامة العدل. ومن الواضح أنّ المجتمع الذي يضم حكاما مقسطين وأناسا عادلين يتغلب على مشاكله بسهولة. وحين يعرض الله تعالى هذا الوصف التفصيلي للعدل في القرآن الكريم، فإنّه يرشد المؤمنين إلى كيفية التصرف أثناء المواقف التي يواجهونها وكيفية إقامة العدل. ومثل هذا الإرشاد يُعد راحة كبيرة

للمؤمنين ورحمة من الله تعالى. ولهذا السبب، يجب على المؤمنين إقامة العدل بصورته الكاملة لينالوا رضا الله تعالى، ولينعموا بحياة تتميز بالأمن والسلام.

يجب أن يُطبَّق العدل سواءً بين الناس دون اعتبارٍ للغةٍ أو لجنسٍأو لعرق

حين نتفحص عن قربٍ تلك التطورات التي تحدث في أنحاء العالم، يتضح لنا أن العدل يختلف تطبيقه وفقا للمكان والزمان والشعوب. فعلى سبيل المثال، في بعض المجتمعات يختلف الحكم على الفرد بسبب لونه. ومع أن الظروف متشابهة، إلا أنّ الحكم الواحد لا ينطبق على شخصين أحدهما أبيض والآخر أسود. وفي بعض المجتمعات يحتل نوع الجنس البشري أهمية لدى الناس، وخير مثال على ذلك ما حدث في القرن العشرين، حين قام هتلر بإبادة ملايين من الناس لاعتقاده بأن للجنس الآريِّ منزلة تعلو على غيره من الأجناس.

وفي يومنا هذا أيضا هناك من يتعرضون للمعاملة القاسية والظلم بسبب ألوانهم أو جنسياتهم ؛ ففي الولايات المتحدة وفي جنوب إفريقيا كان السود يعاملون على أنهم مواطنين من الدرجة الثانية. كما ثارت العديد من الصراعات الهمجية في العديد من الدول الأسيوية والإفريقية بسبب الاختلافات العرقية. ومن ناحية أخرى، يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنّ الغاية من خلق الناس شعوبا وقبائل مختلفة هو:

﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات – ١٣]

فالشعوب والأمم المختلفة كلهم عباد لله وعليهم أن يتعارفوا؛ ومِن ثَمَّ يتعلمون الثقافات واللغات والتقاليد والمهارات المختلفة. وباختصار، فالهدف

من خلْق الناس أجناسا وأمما مختلفة ليس التنازع والتحارب، وإنما هو إثراء الثقافات. وهذا التنوع فضل من الله على عباده؛ فحقيقة أنّ فلانا أطول من فلان أو أنّ جلد هذا أصفر أو أبيض لا تكسبه أي أفضلية على غيره، ولا تمثل عيبًا فيه. فكل صفة يتصف بها أي شخص ما هي إلا نتيجة لخلق الله وتصويره، ولكن تلك الاختلافات لا تمثل أيّة أهمية عند الله تعالى؛ فالمؤمن يعلم أن الإنسان لا ينال منزلة أفضل إلا بتقوى الله وقوة إيمانه.

وهذه الحقيقة مذكورة في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات – ١٣]

وكما يخبرنا الله تعالى في تلك الآية؛ فإنّ العدل الذي أمر به يدعو إلى معاملة الناس معاملة حسنة سمحة دون تفريق بينهم. وفى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم, نجد أنّ معاملته للناس من مختلف الأجناس والبلاد كانت في قمَّة العدل، فقد نهى نهيا شديدًا عن التفريق في المعاملة بين الناس بسبب اختلاف أجناسهم, ونسب مثل هذه الأفعال إلى "عادات الجاهلين".

وقد ذَكّر عليه الصلاة والسّلام الناس بأفعال بعض الناس في الجاهلية إذ كانوا يُضمرون العداء لأناس آخرين بسبب ألوانهم أو أجناسهم, وحذَّر المسلمين من مثل هذا السلوك الذي وُصف في القرآن الكريم بأنه قبيح.

ومنذ ألف وأربعمائة عام تقريبا، كانت كل تلك الأفكار البدائية الجاهلية قد مُحيت بفضل القرآن الكريم الذي أُنزل رحمة للعالمين، وتم الإعلان بأنّ الناس جميعهم سواسية، بغض النظر عن ألوانهم أو أجناسهم أو لغاتهم. وقد أنكر النبي

صلى الله عليه وسلم السلوك غير اللائق الذي يتبعه أهل الجاهلية إذ ينظرون إلى الناس تبعًا للجنس واللون، كما أنه حذَّر المسلمين في خطبة الوداع فقال:

"لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى والعمل الصالح".

وبهذه الكلمات يذكّر النبي صلى الله عليه وسلم البشرية كلها بالحقيقة الواردة في – سورة الحجرات /الآية ١٣، وهي أنّ علو القدر بين الناس لا يتحقق إلا بتقوى الله تعالى. والإسلام، كما أكد النبي عليه الصلاة والسلام قد محا جميع هذه الأفكار الجاهلية. ففي المجتمع الذي تبنى دعائمه على أساس من القيم الإسلامية، لا يمكن أن يُتهم شخص أو يتعرض للتمييز في المعاملة بسبب أنه يهودي أو أسود أو هندي؛ فالله تعالى هو الذي قدَّر الجنس الذي ينتسب إليه كل إنسان كما أنه، سبحانه، هو الذي خلقه في أحسن تقويم. فالواجب على الإنسان دائما أن يكون عادلا، متسامحا، محترما للآخرين، عطوفا عليهم، ودودًا معهم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة كون الإنسان غنيا أو فقيرا لا تمثل أي عائق أمام المؤمن في موقفه إزاء العدل أو في الطريقة التي يتخذ بها قراراته. فليس من المقبول أن الشخص الذي يملك إمكانيات مادية يجوز له أن يضطهد أناسا آخرين أو يُسمح له بارتكاب الجرائم دون عقاب. ومع ذلك، فعندما نُلقى نظرة في أيامنا هذه على بعض دول العالم نجد أن هناك ذهنية تُمالي الأغنياء وتتحيز لهم على حساب الضعفاء، بينما تَعتبر هؤلاء الفقراء مواطنين من الدرجة الثانية، ومن ثَمَّ يستفيد بعض الأغنياء من العدالة أكثر من الفقراء، ويعتبرون أنّ العدل هو أن تكون لهم الأفضلية على الفقراء. وعلاوة على ذلك، فهم يعملون على تحوير آليات القضاء لكي تتماشى مع مصالحهم. هذه العقلية تسبب ظلمًا كبيرًا

في المجتمعات التي يعيش فيها الناس بعيدا عن الدين . ففي الوقت الذي يكافح فيه الناس ويعيشون حياة تعيسة، يستمتع آخرون برغد العيش ونعيم الثراء.

وبالرغم من هذا الموقف الجائر فإنه من الممكن إقامة العدل والسلام الاجتماعي. إنّ انتشار القيم القرآنية وتمسك الناس بها وإصرارهم على العيش في ظلها يمكن أن تصبح أمرًا واقعًا. يأمر الله تعالى المؤمنين في القرآن بقوله:

﴿... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ " النساء : ١٣٥"

وامتثالا لهذا الأمر، فالمؤمن الذي يخشى الله تعالى، سواء كان غنيّا أو فقيرا، يقيم العدل المطلق ولا يتغير موقفه أبدًا مع الناس مهما كانت مستوياتهم المادية. فهو يعلم أن الغِنى والفقر أمر دنيوي يبتلي الله تعالى به من يشاء. فعندما يغادرُ الإنسان هذه الدنيا لا يتبقى له شيء من ممتلكاته، ولن يُكافأ في الآخرة إلا على تقوي الله عز وجل وعلى عدله وأمانته وحسن خلقه، وحينئذ يكون الجزاء الأبديّ.

الله تعالى يأمر بالعدل التّام في الأمور المتعلقة بالأيتام

في القرآن الكريم مثال آخر يتعلق بإقامة العدل، ويختص بمعاملة مال اليتيم إذ يأمر الله تعالى أن يُعامَل مال اليتيم بطريقة حسنة، إلى أن يبلغ رُشده

فيتمكن من التصرف فيه بنفسه. وفي سورة الأنعام يقول الله تعالى:

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ لاَ نُكَلِفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَي وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[الأنعام – ١٥٢]

ويُذكِّر الله تعالى الناس في آيات أخرى متعددة ألا يُبدّدوا أموال اليتامى سريعا قبل أن يبلغوا أشدّهم؛ وإنما عليهم التصرف فيها بطريقة حسنة، من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيرًا ﴾ [النساء – ٢]

﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِّ حَسِيبا ﴾

[النساء – ٦]

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ

بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء – ٣٤]

وقد توعّد الله تعالى هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما بعقابٍ شديد، فهم يبددونها بطريقة جائرة؛ مخالفين أمر الله بضرورة العدل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء – ١٠]

فالله تعالى حرّم على الناس الظلم، ونحن نلاحظ أن مفهوم العدل القرآني يشمل جميع مناحي الحياة. وحين يعمل الإنسان على إقامة العدل بحرص فإن ذلك يعد عاملا مهمّا يؤثر على ما سوف يناله من جزاء في الآخرة.

المؤمن مُطالَب بإقامة العدل مع نفسه ووالديه وذوي القربى

حينما تفكر في مفهوم العدل ربما تجد أنه من السهل أن تكون أعمالك قائمة على العدل، وربما تشعر بالنشوة حينما تتخذ قرارات عادلة. ولكن هل سيكون هذا الأمر سهلا بالنسبة إليك حينما تكون تبعات هذا العدل مؤذية لك أو لوالديك وأحبتك ماديا أو معنويّا؟ هل ستستمر في أن تكون محايدا عادلا أمينا حين تحكم على محبوب لديك قد انحرف عن طريق الصواب ؟

يتردد كثير من الناس إزاء هذا التساؤل. وحقيقة يبدو مثل هذا الأمر من الصعوبة بمكان لدى كثير من الناس. إنهم ببساطة قد يتعاطفون مع من يحبون متجاهلين الحقائق. إنّ أهم ما يعنينا هو عدم التخلي عن العدل مهما كانت الظروف والأحوال، وأن يطبق أمر الله الوارد في الآية بدقة كاملة:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ...**﴾ **[النساء: ١٣٥]**

إنّ الالتزام بالعدل والإصرار على تحقيقه يجلب ثقة الناس حينما يرون ذلك، بيد أنّ محاباة الناس لأجل النسب أو الصّداقة يخلق نوعًا من القلق والاضطراب بينهم. وتلاحظ تلك المحاباة لدى الحكام والرؤساء بصفة خاصة، مما يسبب اضطرابا عظيما في المجتمع.

أمَّا الإنسان المسلم فعليه أن يقوم بأعماله مُمتثلا لأحكام القرآن الكريم, مُنفذًّا لوصايا الله عز وجلّ:

﴿**.... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾**[الأنعام: ١٥٢]**

ومثل هذا السلوك يكشف عن إيمانه القويّ بالله تعالى وكمال الخلق لديه.

هناك صورة جميلة يقدمها القرآن الكريم تتعلق بنبي الله موسى عليه السلام، يقول تعالى:

﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾ **[القصص : ١٥]**

وتروي هذه القصة أنّ موسى عليه السلام شاهد رجلَيْن يتشاجران، وكان أحد هذين الرجلين من شيعة موسى عليه السلام، فانحاز له موسى ووكز الرجل

الآخر. لم يكن يتعمد قتله، ولكن الرّجل مات من ضربة موسى له. وهنا أدرك النبي موسى أنه أخطأ. هذا المثال مهمّ لتوضيح فكرة العدل الذي ينبغي على المؤمن أن يفهمها. كما أنه يبعث برسالة مهمّة أيضا محتواها أنه من الظلم مساندة الشخص المخطئ محاباة له بسبب النسب أو القرابة. ومن المُسلَّم به أنّ النبيّ موسى عليه السلام أدرك الحق في ساعته، وأقر أنّ هذا الفعل "مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ".

والشُّعور بالتحزّب والتعصب، الذي وصفه موسى عليه السلام بأنّه من عمل الشيطان، يعتبر مسئولا عن إراقة الدماء على مرّ التاريخ. فتمكّن هذا الشعور من الإنسان لإثبات حقوق عائلته أو قبيلته أو طائفته أو أتباعه أو عِرقه، دون أيّ اعتبار للعدل قد يتسبب في نشوب العديد من النّزاعات والحروب.

وما ينبغي على المؤمن أن يفعله في مواجهة هذا الشعور مذكور أيضا في القرآن الكريم بالإشارة إلى هذا النموذج من حياة النبي موسى عليه السلام . فحينما احتكم إلى ضميره أدرك في ساعته أنّ هذا الشعور الخاطئ نوع من الظلم، وندم علي خطيئته التي ارتكبها تحت إغواء الشيطان فتاب إلى الله تعالى. وقد جاء على هذا السّلوك المثالي في القرآن الكريم على النحو التالي:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٦-١٧]

بُغض قومٍ لا يمنع المؤمنين من إقامة العدل معهم

البُغض والغضب هما المنبعان الأساسيان للشرّ، ويمنعان الناس غالبا من اتخاذ القرارات بشكل عادل ومن التفكير بشكل منضبط، ويؤثران على الإدراك العقلي والسلوك لديهم. بعض الناس قد يمارس بسهولة شتى أنواع الظلم على أناس يشعر تجاههم بالعداوة ؛ فقد يتهمهم بأفعال لم يرتكبوها على الإطلاق، وقد يشهدون عليهم زورًا بالرّغم من علمهم التام ببراءتهم.

وبسبب مثل تلك العداوات تعرض كثيرون لاضطهاد لا يطاق. وبعض الناس قد يتجنب الشّهادة في مصلحة أناس آخرين لاختلافهم معهم، على الرّغم من يقينهم ببراءتهم، ويخفون الدليل الذي يُثبت براءتهم، كما أنّهم يشعرون بالسعادة عند تعاسة هؤلاء وتعرضهم للظلم والمعاناة، بل وينزعجون حين يُطبَّق العدل على هؤلاء الناس، ومن ثَمَّ إثبات براءتهم.

ولهذا السبب يَصعُب في المجتمعات الفاسدة أن يثق أحدُهم بالآخر. وترى الناس قلقين طول الوقت خوفًا من الوقوع ضحايا لأناس آخرين. وبفقدانهم للثقة المتبادلة بينهم، يفقد هؤلاء الناس أيضًا مشاعرهم الإنسانية كالتّسامح والعطف والتآخي والتَّعاون، ويبدأ كل منهم في معاداة الآخر والكيد له.

غير أنّ الشعور الذي يحمله الإنسان في صدره نحو شخص آخر أو طائفة أخرى ينبغي ألا يؤثّر على سلوك المؤمن وقراراته مهما بلغت درجة انحطاطه وعداوته، بل عليه أن يضع هذا الشعور جانبا و يُحكِم قراراته وأفعاله لتكون عادلة، وأن يوصي بالذي هو حقّ. وبذلك لا يلقي هذا الشعور بظلاله على ضميره أو عقله . فضمير المؤمن يلهمه دائما أن يمتثل لأوامر الله تعالى فلا يتخلى عن أخلاقه الحميدة استجابة لأمر الله تعالى في سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]

وكما ذكرت الآية السابقة يعد اتخاذ المواقف العادلة أدقّ مقياس لتقوى الله، فالمؤمن يعلم أنه لن ينال رضا الله إلا حينما يكون عادلاً، كما أنّ كلّ شخص حين يرى هذا المؤمن العادل يسارع للثّقة به، ويشعر بالراحة بوجوده معه، ويطمئن على أية مسئولية أو مهمة يتولاها. أمثال هذا العادل يعاملون باحترام حتى من قبل أعدائهم، وقد تكون مواقفهم تلك دافعًا لبعض الناس للإيمان بالله.

وأفضل مثال أيضا يحتذي به المؤمن في زماننا هذا وفي كل زمان هو أفعال النبي محمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرها القرآن الكريم. ومثلما يعيش اليوم أناس ذوو معتقدات مختلفة كالنّصارى واليهود والبوذيين والهندوس والملحدين والوثنيين، كان هناك أيضا أمثال هؤلاء يعيشون معا في المجتمع الإسلامي الأول المبارك الذي كان في مجمله يضم أناسا صالحين ملتزمين بالقرآن الكريم.

فعلى المسلم أن يكون عطوفا متسامحا عادلاً رحيما بالنّاس بغض النظر عمن يكونون. فربما يأتي الوقت الذي يؤمنون فيه بالله تعالى وينوبوا إليه. فيجب على المؤمن أن يضع هذه الحقيقة دائما في ذهنه. فمسئوليته دائما هي أن يدعو الناس إلى سبيل الله بالحكمة والتسامح والموعظة الحسنة. وأما إكراه شخص لكي يؤمن أو يقوم بأفعال عن طريق الإجبار فهو ينافي ما جاء في القرآن الكريم، يقول الله تعالي:

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾ [البقرة : ٢٥٦]

الرسل جاؤوا بالعدل

إن بيئةً يسود فيها العدل الحقيقي علي النحو الذي أوردناه في الفصول السابقة يَراه أغلبُ الناس خيالاً لا يَردُ إلا في كتب الأدب. إنهم يُنكرون إمكانية وجود مجتمع يعُمُّه العدل الحقيقي؛ إلاّ أن التاريخ يقف شاهدًا علي عهود من الزمن أُقيم فيها العدلُ الموصوفُ في القرآن الكريم، وانتشر التسامحُ والأمن والسلام في العلاقات بين الناس. فالأمم التي أرسل الله تعالى رسله إليها تميزت علاقاتهم الاجتماعية بالعدل والسلام والتسامح ، يقول الله تعالي في القرآن الكريم:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّـــةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَـــاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٤٧]

لم يكن هناك اضطهادٌ لأحدٍ في تلك الأزمنة بل كان العدل الحقيقي سائدًا بين الناس.

يأمر الله تعالي جميعَ رسلِه أن يُقيموا العدل دون اعتبار لجنس أو لعرق, والكتب التي أنزلت إلى عيسى وموسى و داوود عليهم السلام دعت الناس إلى

التحلي بالأخلاق الحميدة وإلى إقامة العدل والسّلام والالتزام بالأمانة، والتعاليم نفسها وردت في القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وتؤكد الآية التالية أنّ أحد الأسباب وراء إرسال الرّسل هو إقامة العدل:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]

ويروي القرآن الكريم عن أحد الأنبياء الذين أمرهم الله تعالى بإقامة العدل أن يكون سلوكهم مثالا يقتدي به النّاس، إنّه النبي داوود عليه السلام حين جاءه خصمان لكي يحكم بينهما بالعدل:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾

[ص: ٢١ – ٢٣]

وقد سأل الخصمان النبي داوود، كما ذكرت الآيات، ألا يكون حكمه جائرًا وإنما عليه أن يرشدهم إلى سواء الصراط، ذلك أنهما وثقا في عدله مذعنين لما سيحكم به، فكانت إجابته لهم كما يلي:

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ...﴾ [ص: ٢٤]

إن ما قام به النبي داوود عليه السلام هنا لَيُعَدُّ مثالا جيّدًا يجب على المؤمنين الاقتداء به؛ فقد ساند صاحب الحق ولم يُؤثِّر عليه ما للخصم الآخر من قوة، وذاك العدل هو بعينه. وفي الآية ٢٥ من السورة نفسها، مجد الله لنبيه داوود حسن صنيعه وبشره بحسن المآب: "... وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ". وفي الآية ٢٦ يُذكِّره الله تعالى بما للعدل من أهمية:

[يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ]

أما شعيب عليه السلام الذي أُرسل إلى مدين، وهي إحدى القبائل التي كانت حياتها التجارية قائمة على الظلم، فكانوا يتلاعبون بممتلكات الناس، ويبخسونهم السلع، ويسلبون أموالهم بالاحتيال. وقد حذرهم النبي شعيب عليه السلام من ظلمهم، ودعاهم إلى العدل. وتقُصُّ علينا الآية التالية جانبا من هذا الموضوع:

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ

أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

وفي آية أخري، ذكرهم شعيب عليه السلام أنّ الكسب الحلال والأمانة خير لهم، ودعاهم لإقامة العدل:

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٥ – ٨٦]

وَيُقدم لنا الله تعالى في القرآن الكريم أمثلة عديدة لما قام به أنبياؤه من مواقف عادلة كالنبي موسى وعيسى ويوسف، عليهم السلام، وغيرهم. ويذكر لنا القرآن الكريم بالتفصيل كيف دعا هؤلاء الأنبياء أقوامهم إلى فعل الخيرات.

والنبي محمد، صلي الله عليه وسلم، أقام العدل أيضا في قومه، ممتثلا لقوله تعالى:

﴿... كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ ... ﴾ [النساء: ١٣٥]

وقد كان كمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم ودقته البالغة في إقامة العدل السبب الرئيس لأن يثق الناس به ثقة لا تتزحزح، ولأن يتعلقوا بدين الله تعالى. وخلال السّنوات الأولى لنزول القرآن الكريم دخل الكثير من الكفار البارزين في الإسلام لما رأوه من كمال خلقه وتمام عدله صلي الله عليه وسلم.

أمثلة ذلك من حياته صلى الله عليه وسلم لا تحصى، وقد نُقل إلينا الكثير منها في السجلات التاريخية وفي الأحاديث النبوية الشريفة. إنّ سلوكه المتسم بالعدل والتسامح والرحمة ليُعَد من أروع النماذج الواجب على المسلمين اتباعها في

كل عصر. لم يكن لينطق عن الهوى بل كان الوحي ظاهرًا في أحاديثه ومواقفه وأفعاله. ويصف الله تعالى حسن خلق نبيه محمد وعنايته الفائقة بالمؤمنين:

﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]

الحياة النموذجية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُقيم العدل بين الناس. وبالفعل بدأ النبيّ الخاتم في نشر دعوته إلى الإسلام بمكة حيث تلقى الوحي متخذا العدل سلوكا لا يحيد عنه. وفي ذلك الوقت كانت شبه الجزيرة العربية، وخاصة مكة، تموج بالمشكلات الاجتماعية. وكان في الجاهلية، وهى فترة ما قبل الرسالة المباركة، تمييز سافر بين الأجناس والأديان. وكان من نتائج هذا التمييز تنازع القبائل مع بعضها البعض، ونظام اقتصادي فاسد، والنهب والسلوكيات الجائرة فيما بين أفراد الديانات المختلفة، والتفرقة بين الغني والفقير، وغير ذلك من مظاهر الظلم.

لم يكن من الممكن حينذاك إقامة العدل، بل كان الفقراء مُضطهَدين من قِبَل الأقوياء، كما تعرض بعض الناس للعنف بسبب أجناسهم أو أديانهم أو لغاتهم. وكان هؤلاء يُجبَرُون للعمل في ظروف قاسية ويتعرضون للتعذيب.

وفي الحياة التجارية، وفي ظل النظام القائم على المصالح الشخصية، اختفت الأعمال ذوات رؤوس الأموال البسيطة بينما انصرف الأثرياء إلى الإسراف والبذخ. وبالتدريج أصبحت مثل تلك السلوكيات القبيحة عادات وتقاليد. فمثلا

كان العرب في العصر الجاهلي ينهبون القوافل التجارية بالإغارة عليها ويبيعون الغنائم بأثمان بخسة مسيطرين بذلك على الأسواق. وفي كثير من الأحيان كانوا يخفون تلك البضائع إلى وقت الحاجة ثم يبيعونها بأسعار باهظة.

يخبرنا الله تعالي في القرآن الكريم عن الأعراب الذين كانوا يشكلون غالبية المجتمع في فترة ما قبل البعثة النبوية، وكيف أنهم أعرضوا عن الامتثال لكلمات الرسول كما في الآية التالية:

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧].

أرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء الجاهلين ليدعوهم إلى الأخلاق الحميدة وإلى الطريق المستقيم. لم يكن يتزحزح مع ما يلاقيه من صعوبات، وإنما بلغ رسالة ربّه إلى القبائل التي غلب عليها طابع الكفر والتكذيب، كما كان طوال مكوثهم بين ظهرانيهم نموذجا لهم. وتخبرنا الآية التالية كيف كان يأمرهم بالعدل والقسط:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .... ﴾ [الأعراف: ٢٩]

وقد كان لاقتران الرّسالة المحمدية بالأخلاق الحميدة أعظم الأثر في شبه الجزيرة العربية؛ فدخل الناس في دين الله أفواجا. وساد حينذاك تطبيق ما أمر به القرآن من حسن الخلق والتسامح والسّلام، فكان النظام الاجتماعي حينذاك يعمه الأمن. وأحد الأسباب المهمّة لذلك هو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أقام السلام الاجتماعي بدون تمييز بين الناس، ممتثلا للآية الكريمة:

﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ

أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾

[النساء: ٥٨]

وأحد الأمثلة الدالة على ذلك هو المعاهدة التي عقدها مع طائفة من أهل الكتاب وهم أهل نجران، ونص هذه المعاهدة يكشف عن تطبيق للعدل لم يسبق له مثيل في مثل ذلك العهد. وهذا نص معاهدة نجران:

"إذا طالب أحد من أهل نجران بحقوقه فيجب أن يُحكم بالعدل بين المُدَّعِي والمُدَّعَى عليه، ولهم ألا يظلمهم أحد, وعليهم ألا يظلمون أحدا"" [١]

وهذا يوضح مدى العدل الذي تمتع به الناس آنذاك. وبسبب هذا العدل الفريد، أصبح الناس يثقون في رسول الله، حتى من كان من ألدّ أعدائه، وأعجبوا أشدّ الإعجاب بأمانته صلى الله عليه وسلم.

إنّ تلك المواقف التي تعرض بعضا من محاسن أخلاق النبي صلي الله عليه وسلم قد ظهرت نتيجة لالتزامه الدقيق بمنهج الله تعالى وأوامره، كما أنها تعكس التسامح والنظام العادل الذي أدخله النبي في الحياة الاجتماعية. وأصبح من الواضح أن المجتمع الذي يلتزم بأوامر القرآن وقيمه ويتحرى الدقة في ذلك لابدّ أن ينعم بحياة ملؤها الأمن والعدل.

النبي صلى الله عليه وسلم يقف ضدّ جميع مظاهر التفرقة العنصرية

لقد حمل النبي محمد على عاتقه إقامة العدل في عهده، ورفض معتقدات الجاهلية التي تعتبر بعض الناس أرفع مقامًا من غيرهم بسبب اللغة أو الجنس أو العرق أو الوضع الاجتماعي. ومثل هذا التمييز الجائر منهيّ عنه في القرآن

الكريم بشدة. وفي يومنا هذا، وفي الوقت الذي تعرف العنصرية بأنها شيء حرمه الله تعالي في القرآن الكريم، نجد أنها منتشرة انتشارا كبيرًا في العديد من المجتمعات. وكما ذكرنا سابقا فالله تعالى خلق الناس شعوبًا مختلفة لغرض معين "لِتَعَارَفُوا". فالنّاس عند الله سواء، وعلو القدر لا يكون إلا بتقوى الله تعالى والإيمان به. وقد وضّح النبي أيضا لقومه الذين مارسوا التمييز العنصري أن الاختلافات العرقية ليست بذات أهمية وأنّ الكلّ أمام الله سواء. وأكّد في العديد من المواضع أن المهم هو الإيمان الصادق بالله تعالى. وفي خطبته الأخيرة، أمر النبي عليه الصلاة والسلام الناس ألا يُميزوا في معاملاتهم:

" أيها الناس، إنّ ربكم واحد ، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم" [٢]

كما أخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم الناس أيضا أنّ الله تعالى خلق الناس ولم يكونوا شيئا، فالكل سواء والكلّ مسئول عن أعماله أمام الله تعالى. ولهذا السّبب أضاف أنه من الخطأ أن يقيّم الإنسان على أساس نسبه. ويقول الرّسول الكريم

" كلكم لآدم وآدم من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان" [٣].

كما قال أيضا أنّ المقياس هو التقوى فقط:

"إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طفّ الصاع لم تملؤه. ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى، حسب الرّجل أن يكون فاحشا بذيئا بخيلا جبانا" [٤].

وعلى مدى حياته، حث النبي صلى الله عليه وسلم الناس أن يتخلوا عن مبادئهم الجاهلية الحمقاء, وأن يعيشوا متمسكين بالقيم القرآنية. وقد وصف

القرآن الكريم هذه العنصرية بـــ"الحميّة"، وانتقد من يتخذونها سلوكا، يقول تعالى:

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]

والمسلمون الذين امتثلوا لأوامر الله تعالى في الآية السابقة نعموا بحياتهم خلال العهد الإسلامي الأول المبارك، وفي العهود التالية التي حكم فيها الخلفاء الراشدون بالعدل.

العُقود المُبرَمة في عهد النبي محمد مع أهل الكتاب والمشركين تقرّ العدل في المجتمع

بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة واجَهَ العديدَ من الطوائف المختلفة. في ذلك الوقت كان أصحاب النفوذ، وهم اليهودُ والمسيحيون والوثنيون، يعيشون معًا. ولذلك كان على النبي أن يُوحِّد هذا التركيب العام من أجل تأمين وحدة المجتمع وتوطيد السلام بين أفراده، فقام بعقْد معاهدات، وكانت تتم إمَّا ببعث الرسائل أو بالمقابلات الشخصية المباشرة، مع ما يزيد على مائة طائفة, ومن ثَمَّ تحققت الوحدة الاجتماعية°. ويؤكّد الدكتور توماس أرنولد على أهمية الوحدة الاجتماعية التي أسّسها النبي محمد صلي الله عليه وسلم فيقول:

"لم يحدث من قبل أن أعلنت الجزيرة العربية الطاعة لأمير واحد، لكنها فجأة أبدت توحّدا سياسيا, وأعلنت قسم الولاء للحاكم الحقيقي. فبعد أن كانت

قبائل متعددة، صغيرة وكبيرة، تتألف من حوالي مائة حزب، يعيشون في نزاع مستمر، جمعتهم كلمة محمد وخلقت منهم أمة واحدة" [٦].

وكما ورد في العديد من آيات القرآن الكريم، إنّ التعايش في سلام مع أهل الديانات الأخرى يعتبر أمرًا مطلوبًا. وفي الآية التالية يأمر الله تعالى المسلمين أن يؤمنوا بجميع كتبه التي أنزلها على رسله، وأن يحترموا ما ورد بها:

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]

تصف الآية السابقة كيف يتعامل المسلم مع أهل الديانات الأخرى، فيجب على المسلمين أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، في حسن الخلق والتسامح والعدل مع الآخرين بغض النظر عن كونه بوذيا أو يهوديا أو مسيحيا أو ملحدًا. مثل هذا العدل وتلك الأمانة يترك أثرًا إيجابيا واضحًا في قلوب هؤلاء الناس مهما كانت معتقداتهم أو حتى إذا لم تكن لديهم أية معتقدات، كما أنّ هذا يعتبر وسيلة تجعلهم أقرب إلى الإسلام.

لقد تميزت هجرة النبي إلى المدينة وإدارته شئون المسلمين بالإخاء والتسامح، وبرهنت على أنّه من الممكن أن يعيش أناس ذوو ديانات أو أجناس أو لغات مختلفة معًا في سلام. إنّ أول نصٍّ مكتوب تعهد به النبي صلي الله عليه وسلم كان اتفاقية سلام [٧]. وتلك الحقيقة تؤكد حقيقة أخرى هي أنّ النبي أخذ على عاتقه إقامة العدل والتسامح. وبعد فتح مكة تجلّت سماحة النبي حين عفا عن أولئك الذين قاموا بتعذيب المسلمين من قبل. إنّ تمام الخُلُق هذا لم يسبق

له مثيل في المجتمع العربي؛ لذا كان دائما محل تقدير الناس وإعجابهم.

ومنذ ذلك الوقت أصبح النبي محمد نموذجا للمؤمنين، فيما يتعلق بإقامة العدل الحقيقي في البلاد المفتوحة. فقد طبّق العدل الموصوف في القرآن الكريم تجاه سكان البلدان المفتوحة، كما قام بعقد معاهدات معهم كانت سببا في سعادتهم. وكانت السمة المميزة لتلك المعاهدات أنّ أحدًا لم يتعرض لأدنى ظلم. ولهذا السبب كان أهل البلدان المفتوحة، مهما كانت أجناسهم أو دياناتهم، دائما مسرورين بسبب العدالة التي أتى بها الإسلام إليهم.

لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم العدل بين الناس وكذا فعل أصحابه، سلام الله عليهم أجمعين كما تؤكد الآية الكريمة:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]

وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في العدل والتسامح بمعاهدته مع أهل نجران المسيحيين الذين عاشوا جنوب شبه الجزيرة العربية. وتحتوي تلك المعاهدة على البند التالي:

> "إنّ حياة شعب نجران، والمنطقة المحيطة بهم ودينهم وأرضهم وأملاكهم وماشيتهم وأهلهم، الحاضرين والغائبين، ورسلهم وأماكن عبادتهم تحت حماية الله ووصاية نبيه" [٨].

بواسطة مثل هذه المعاهدات، ضمن رسول الله النظام الاجتماعي للمسلمين وأهل الكتاب على حد سواء، ذلك النظام الذي تميز بالسلام والأمن وهو ما تصوره الآية التالية:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]

إنّ ما ذكرناه من الأمثلة يُعد ضئيلا بالمقارنة مع ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم لإقامة العدل، إلاّ أنّ أهم هذه المعاهدات هو دستور المدينة الذي تم عقده مع اليهود والمشركين، هذا الدستور الذي ما زال موضوع العديد من المقالات التي تُكتب اليوم، وهو محلّ اهتمام وعناية كبيرين.

تمّ إعداد هذا الدستور تحت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم قبل ١٤٠٠ عام, وكان ذلك تحديدًا عام ٦٢٢ م، ووضع موضع التنفيذ كعقد قانوني مكتوب للوفاء باحتياجات الناس بمختلف عقائدهم. وأصبحت المجتمعات بمختلف أديانها وأجناسها أطرافًا في هذا العقد القانوني، بعد أن أضمرت العداوة لبعضها البعض على مدى مائة وعشرين عامًا. لقد أثبت النبيّ صلى الله عليه وسلم بواسطة هذا العقد أنه من الممكن وضع حدّ للنّزاعات بين المجتمعات التي يعادي بعضها بعضا لدرجة أنه من المستحيل إيجاد تسوية بينها، كما أثبت أنه من الممكن فعلاً أن يعيشوا بعد ذلك جنبا إلى جنب.

وفقا لدستور المدينة، كانت الحرية مكفولة لكل شخص، فيكون له اعتقاده ودينه، ويختار وجهته السياسية والفلسفية كيفما شاء. كما كان من الممكن للّذين يشتركون في العقيدة نفسها أو الدّين نفسه أن ينشئوا جالية. وكُفلت الحرية لكلّ جالية، إذ بإمكانها أن تتبع نظام العدالة الخاص بها، بشرط ألاّ يقوم أحد بحماية المفسدين. وعلى أطراف العقد أن يتعاونوا ويساندوا بعضهم بعضا، أما مسئولية حمايتهم فكانت موكلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا فإنّ أيّ نزاع ينشب بين أطراف العقد يجب أن يُوكل إليه.

بقي هذا العقد ساريا من عام ٦٢٢ إلى عام ٦٣٢ م، وتمّ من خلاله القضاء علي التركيب القبلي المبنيّ على أساس صلات الدمّ والقرابة، وتم تأسيس وحدة اجتماعية من أناس ذوي أصول ثقافية وعرقية وجغرافية مختلفة، فأصبحوا يعيشون

سويّا. وقد ضمن دستور المدينة الحريّة الدينية المطلقة، وهذا تبدو جليًّا في البند التالي:

" سيعيش يهود بني عوف مع المؤمنين جنبا إلى جنب، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم" [٩] .

كما ضمن هذا العقد أيضا الحقوق الفردية لليهود والمشركين، يقول البند السادس عشر:

"اليهودي الذي يلتزم بالعقد له كل الحق في أن ينال مساندتنا له، وحقوقه مكفولة تماما كأيّ واحد منا، فلن يؤذيه أحد، أو يناصر عدوه عليه" [١٠].

وقد التزم أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم بهذه الوثيقة بمنتهى الدقة، وحفظوا الحقوق للبربر والبوذيين والبراهمة وغيرهم [١١]. وفي تلك الفترة كان من السهل أن تُحلّ النزاعات، كما كان كل فرد يحترم معتقدات الآخرين، فكان أن عم السلام والعدل لمدة طويلة من الزّمن.

لم يكن العقد الذي أبرمه النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب فحسب؛ وإنما شمل المشركين أيضا، فقد عاملهم بالعدل دائما، وكان يجيرهم على الفور حينما يستجيرون به.

هذا يعني أن تلك المجتمعات طلبت حماية النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة الهجمات عليها أو الاتهامات الباطلة لها. فعلى مدى حياته طلب العديد من المشركين وغير المسلمين حماية النبي صلى الله عليه وسلم، فقام بحمايتهم وضمان الأمن لهم. وفي سورة التوبة، يذكر الله تعالى طلبات الحماية من قبل الوثنيين وقبول المؤمنين لها، يقول تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ

أَبْلغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِّ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٦–٧]

وكما ورد في الآية، يطلب الله تعالى من المؤمنين أن يتخذوا مواقف عادلة تجاه المشركين، ويُحمِّلهم مسئولية تأمينهم حين يطلبون الحماية.

أهل الكتاب في عهد النبي صلّى الله عليه وسلم

حين نبحث في علاقات النبي بأهل الكتاب في السنوات الأولى للإسلام نجد أنه تعاون مع المسيحيين. فحينما تعرض المسلمون للقسوة على أيدي المشركين بمكة، نجد أن النبيّ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة حيث يعيش المسيحيون في ذلك الوقت. وقد قَبِل النجاشي ملك الحبشة المسيحي المهاجرين المسلمين وأمَّنهم ضد القمع والاضطهاد. كما أنّ القرآن يعطي مثالا عن الحواريين أتباع عيسى عليه السلام ليحتذي به غيرهم من المؤمنين في الولاء لله ورسوله. وهناك أيضا نقاط تشابه ملفتة للنظر بين المسلمين الأوائل والمسيحيين الأوائل؛ فأوائل المؤمنين بالله كثيرًا ما يلازمهم الإخلاص لرسل الله على الرغم مما يلقونه من مصاعب وما يتعرضون له من عنت. ويحكي لنا القرآن الكريم أنّ المسيحيين الأوائل في عهد عيسى عليه السلام كانوا مسلمين مخلصين أسلموا وجوههم لربهم:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ

نَحْنُ أَنصَارُ اللهِّ آمَنَّا بِاللهِّ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]

[وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

كما أنّ موقف النبي المتسامح تجاه المجتمعات اليهودية يعدّ أيضا مثالا جيدًا لجميع المؤمنين؛ ففي فترة دستور المدينة، عامل النبيّ اليهود معاملة حسنة، وكان متسامحا معهم، وحثّ على ضرورة أن يكون هناك تعاون وتشاور وحسن عشرة بين المسلمين واليهود [١٢]. وبالفعل تمّ تطبيق ذلك في أحداث الحياة اليومية. وهذا الموقف المتسامح الذي قام به النبيّ عليه الصلاة والسّلام هو في الواقع تجاه الناس جميعا على اختلاف أديانهم وأجناسهم. وعلى الرّغم من الغدر والخيانة والمكائد، كان النبيّ عفُوًّا عن مرتكبي تلك الجرائم، مُمتثلا لقوله تعالى:

"وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ" [آل عمران: ١٣٤] وملتزما بقوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]

فكان يدعو النّاس إلى الإسلام بالموعظة الحسنة.

تطبيق العدل في عهد الخلفاء امتثالا للقرآن الكريم

لقد نَهَجَ الخلفاء الراشدون نهْج الرسول صلي الله عليه وسلم، بعد وفاته في تحرّي العدل وإقامته؛ ففي البلاد المفتوحة تمتع السّكان المحلّيون والوافدون الجُدد على حدّ سواء بحياة ملؤها الأمن والأمان. فقد أمر الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه، أتباعه بأن يُقيموا العدل في تلك البلاد. ولم يكن ما قام به هؤلاء الناس من إقامة العدل إلا امتثالا لأوامر القرآن الكريم.

وقد أمر أبو بكر جيشه قُبيْل التوجه إلي الشام بهذا الأمر :

" أيها الناس قفوا أوصِكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصّوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تُقدِمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطّعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله"[١٣] .

وقد اشتُهر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدله وبالمعاهدات التي عقدها مع أهل البلاد المفتوحة، تمامًا كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت كلّ واحدة من تلك المعاهدات تُمثل نموذجًا للعدل والتّسامح. فمثلا، حين أعلن تأمينه للمسيحيين في القدس وإيلياء، أكّد أنّ الكنائس لن تُهدم، وكفل لهم أنّ المسلمين لن يُصلّوا جماعة في الكنائس. وقد منح عمر رضي الله عنه هذا العطاء نفسه للمسيحيين في بيت لحم. وأثناء فتح المدائن، منح إعلان الحماية للبطريرك النسطوري يشأوياب الثالث " ٦٥٠ - ٦٦٠ م "، وأكّد ثانية أنّ الكنائس لن تُهدم، ولن يتم تحويل أيّ مبنى إلى منزل أو مسجد [١٤]. والخطاب

الذي كتبه البطريرك إلى أسقف بلاد فارس يلفت الانتباه إلى حدّ بعيد؛ حيث تظهر فيه الكلمات المسيحيّة، وهي تصف العدل والرأفة التي أظهرها الحكام المسلمون في تعاملهم مع أهل الكتاب:

"العرب الذين منحهم الله حكم العالم في هذا الوقت لا يضطهدون الدّين المسيحي؛ بل يحترمونه فعلا. إنهم يُكرمون قساوستنا وقديسينا، وتصل منافعهم إلى كنائسنا وصوامعنا" [١٥].

الوثيقة التالية من عمر، رضي الله عنه، تُظهر نوع التسامح الذي يهبه الله للإنسان حينما يتّصف بالخصائص التي ذكرها القرآن الكريم:

"هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم" [١٦]

كل تلك الأمثلة مهمة جدًّا في توضيح مفهوم العدل والتسامح لدى المؤمنين الحقيقيين.

لقد تمّ بواسطة الفتوحات التي وقعت في عهود الخلفاء إنقاذ المجتمعات في تلك البلاد من الظلم، وأُتيحت لهم الفرصة للتعرف على الإسلام. لكن أحدًا منهم لم يُجبَر على الدّخول في الإسلام، وهذا ما تنص عليه الآية الكريمة:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]

فقد مارس كل شخص دينه بحرية تامة، ولم يتعرض أحد لأيّ نوع من العدوان. لكنهم تعلموا الكثير عن الإسلام بما رأوه من أفعال المسلمين الذين التزمت ضمائرهم النقية بمبادئ الإسلام، ونتج عن ذلك تأثّرهم الشديد. وبالفعل أذعن معظمهم للنداء المخلص الذي أطلقه هؤلاء المسلمون الأتقياء، فزاد بذلك

عدد الداخلين في دين الإسلام زيادة مُطَّردة. فعلى سبيل المثال دخل بعض المسيحيين من كنده وإياد في الإسلام بإرادتهم الحرّة في عهد الخليفة أبى بكر رضي الله عنه، وبعد فتح دمشق دخل كثيرون في الإسلام أيضا بكامل حريتهم. ١٧

الزّعم الباطل بأن الناس في البلدان المفتوحة قد دخلوا في الإسلام تحت التهديد تم تفنيده ودحضه من قِبَل الباحثين الغربيين الذين أثبتوا موقف العدل والتسامح الذي التزم به المسلمون. يعبر الباحث الغربي إل. براون عن هذا الموقف بقوله:

"إنّ تلك الحقائق المؤكدة لتنفي بشكل قاطع الفكرة التى نشرتها كتابات المسيحيين بشكل واسع من أنّ المسلمين أينما ذهبوا كانوا يُكرهون الناس على الإسلام بحدّ السيف". ١٨

أهل الكتاب في القرآن

ويؤكد براون في كتابه " فُرَص الإسلام" أنّ السبب الحقيقي وراء فتوحات المسلمين هو أخوَّة الإسلام.

يوجد في هذا العالم العديدُ من الأمم التي تختلف في ألوانها وعقائدها ولغاتها. وعلى مَرِّ العصور كانت هذه الاختلافات سببا للخصومات بين الأمم. ولعلك تلاحظ هنا أنّ الناس لم يستطيعوا التعايش مع بعضهم البعض لاعتقادهم أنّ النزاعات دائما ما تنشَب حيث توجد تلك الاختلافات. ولكنّ تلك الفكرة خاطئة، فالحقيقة عكس ذلك تمامًا. الحقيقة هي أنّ الله تعالى خلق الناس شعوبا مختلفة ودعاهم جميعا في القرآن الكريم إلى السّلام والأمن, يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]

﴿ وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]

لقد جاءت الأديان السّماوية جميعُها تحث الناس على الإيمان بالله وتدعوهم إلى مكارم الأخلاق وتحذّرهم من سوئها. وعلى الرّغم من حقيقة تحريف جميع هذه الأديان فيما عدا الإسلام، إلاّ أنه يبدو لنا اليوم واضحًا أنّ أساس هذه الأديان واحد. ولهذا السبب فإنّ النزاعات المصطنعة التي أثيرت، تفتقد إلى سبب معقول أو منطقي. وكما ذكرت الآية السابقة فإنّ السبب الأساسي لهذا الاضطراب بين الناس هو عدم الامتثال لأوامر الله تعالى واتباع خطوات الشيطان.

إنّ المؤمنين الذين يُضمرون مشاعر عدائية تجاه أناس آخرين مؤمنين بالله تكون أخلاقُهم قبيحة، وهم بذلك يُغضبون الله تعالى الذي حرَّم على المؤمنين أن يُظهروا مثل تلك المشاعر العدائية. فقد دعا الناس جميعا إلى إقامة العدل وإبداء التسامح والتعارف. والقرآن الكريم المُنزَّل على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يحتوي على أوامر واضحة ووصايا تتعلق بهذا الموضوع.

منزلة أهل الكتاب في القرآن الكريم

اليهود والنصارى الذين يدينون بالكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى يُدعوْن في القرآن الكريم بـــ"أهل الكتاب". وقد بينت آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بالتفصيل كيف ينبغي أن تكون نظرة المسلم إلى هؤلاء وكيفية العلاقة معهم، بالإضافة إلى منزلتهم في الحياة الاجتماعية. وبما أنهم يعتمدون أساسا على الوحي الإلهي؛ فلهم أحكامهم التي يميزون بها الحلال من الحرام. ولهذا يحلّ للمسلم أن يأكل من طعام أهل الكتاب. وللسّبب نفسه يحل للرجل المسلم أن يتزوج امرأة منهم. وفي هذا السياق يقول تعالى:

﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ**

وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥]

وعلى مَرِّ التاريخ الإسلامي كان أهل الكتاب يُعامَلون معاملة حسنة في المجتمعات الإسلامية، وكان هذا جليًّا بصفة خاصة أثناء الخلافة العثمانية. وهناك حقيقة تثبت ذلك، وهى أنّ اليهود الذين سُلبت حقوقهم وطُردوا من قِبَل المملكة الكاثوليكية في أسبانيا وجدوا ملاذهم على أرض الدّولة العثمانية. وحين فتح السلطان محمد الفاتح استانبول، كفل للنصارى واليهود جميع حقوقهم الأساسية. وظلّ اليهود خلال عهد الخلافة العثمانية يُعامَلون معاملة أهل الكتاب متمتعين بنيل حقوقهم مع المسلمين.

كيف ينبغي أن تكون نظرة المسلم إلى الديانة اليهودية ؟

ذكرنا في الصفحات السالفة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم عامل أهل الكتاب طول حياته بمنتهى العدل والتسامح. وبفضل موقفه هذا، دخل الحاخام اليهودي البارز عبد الله بن سلام ورفقاؤه في الإسلام, وآمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. إنَّ ممارسات الاستقصاء والتحقيق في تاريخ أوربا الناتجة عن التعصب المسيحي، وممارسات معاداة السامية المتعلقة بآراء مؤيدي التمييز العنصري ومعاداة اليهود لم توجد أبدًا في العالم الإسلامي. ولكن في القرن العشرين ومع

اعتناق اليهود للصهيونية المعادية للأديان، والتي تُعتبر أيضا عقيدة عنصرية أصبح الشّرق الأوسط مسرحًا للنزاعات والاضطراب بين اليهود والمسلمين.

لا شكّ أنّ الصهيونية تُعَد أيديولوجية سيئة ومخرّبة، ليس للمسلمين فحسب، وإنما لسلام العالم أجمع، ولذا يجب على كل مسلم وكلّ إنسان مهما كانت انتماءاته السّياسية ومعتقداته أنْ يقاوم الصّهيونية على أسس عقلية ومنطقية.

ومع ذلك فإنّ من الضّروري جدًّا على أية حال، إقامة العدل وتجنّب الظلم والإجحاف. فالواجب على كلّ مسلم أن يُقاوم الصّهاينة بشرط ألا يُعرّض اليهود الأبرياء للظلم والاضطهاد.

إنّ معاداة السّامية تُعتبر، كغيرها من ألوان التّمييز العنصري أيديولوجية دخيلة على الإسلام؛ فالمسلم يُعارض كلّ أشكال الإبادة الجماعية والتعذيب والعنف، بِغَضِّ النظر عن الدين أو الجنس أو الأصول العرقية. والمسلم لا يوافق على أيّ هجوم على اليهود الأبرياء أبدًا مهما كان بسيطا، كما أنه لا يُوافق على أن يتعرض أيّ فرد في أية أُمَّة لمعاملة قاسية، بل يشجبه ويندد به. كما يشجب القرآن أولئك الذين يسعون في الأرض فسادًا، والذين يتعرّضون للنّاس بالقسوة والوحشية، والذين يقتلون الناس بغير حق. نذكر بعض الآيات بتلك المعاني:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]

ومن ثَم فإنّ ردّ الفعل الذي يشعر به المسلم نحو الصهيونية يجب ألا يتحوّل إلى أيّ نوع من معاداة اليهود، كما أمر الله تعالى في الآيات السابقة. كما يجب ألا يتعرض الأبرياء لأيّ ردّ فعل غير مقبول. وهذا شرط لكي يتم العدل والتسامح.

إنّ معاداة السامية وغيرها من ألوان التمييز العنصري كمعاداة السّود ما هي إلا انحرافات نشأت عن العقائد والأفكار المختلفة. فعندما نفحص معاداة السامية وغيرها نرى بشكل واضح أنها تُروِّج لأفكار وتدعو إلى نموذج من المجتمع يتعارض كليّا مع القيم الأخلاقية التي يدعو إليها القرآن الكريم. فمعاداة السامية، على سبيل المثال، قائمة على أساس من الكراهية والعنف وانعدام الرحمة. فالشخص المعادي للسامية تتمكن منه القسوة لدرجة أنه يساند قتل اليهود رجالا ونساء وأطفالا وشيوخًا كما يرضى بتعذيبهم. أمّا الهديُ القرآني فيدعو إلى الحبّ والعطف والرّحمة مع كلّ الناس. كما أنه يأمر المسلمين بإظهار العدل والتسامح والعفو حتى مع أعدائهم ، تقول الآية الكريمة:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة: ٣٢]

إذا فقتْل إنسان واحد بريء يُعتبر جريمة خطيرة جدًّا.

على الجانب الآخر، يَرفض المعادون للسامية وغيرهم من العنصريين أن يعيشوا في سلام مع سواهم ممن لديهم أجناس أو عقائد مختلفة. ومثال ذلك أنّ العنصريين الألمان "النازيّين" والعنصريين اليهود "الصّهاينة" عارضوا وجود الألمان واليهود معا على صعيدٍ واحد. فكلا الطرفين رفض ذلك متعللا بالقلق من انقراض أجناسهم الخاصة بهم.

أمّا في القرآن الكريم فلا يوجد أدنى تمييز بين الأجناس؛ بل يدعو القرآن الناس بمختلف عقائدهم إلى العيش سويّا في المجتمع ذاته بسلام وسعادة. حتى إنّ القرآن الكريم قد فرق بين الذين لا يؤمنون بالله ولا بدين وبين الذين يعادون الدين بشدة. فالله تعالى يأمر المسلمين أن يميزوا بين منزلة هؤلاء عن غيرهم ممن يعادي الدّين، كما يأمرهم أن يتعاملوا معهم بالعدل لانتفاء عداوتهم للدين:

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]

فنحن مأمورون في القرآن الكريم بألا نحكم على الناس بحسب انتمائهم إلى دين أو أمة أو جنس معين؛ ففي كل مجتمع يوجد الأخيار كما يوجد الأشرار. ويلفت القرآن الكريم انتباهنا إلى هذا التفاضل. ومثال ذلك أنّ القرآن الكريم بعد أن ذكر صفات العِصْيان لبعض أهل الكتاب أتبع ذلك مباشرة باستثناء مهمّ:

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ١١٣-١١٥]

نستنتج من ذلك أنّ المسلم الذي يتفكر في آيات القرآن الكريم ملتزما بها متقيا الله تعالى من المستحيل أن يشعر بالعداء نحو اليهود بسبب دينهم أو عقيدتهم. فالقيم الأخلاقية في القرآن الكريم تنهى عن التمييز العنصري. ولهذا السبب، لا يُمارس المسلم الذي يتبع القرآن الكريم أيّ تمييز عنصري، ولا يحتقر الناس بسبب انتمائهم إلى جنس معين. فالقرآن الكريم يأمرنا أن نتخذ موقفا متسامحًا ودودًا مع أهل الديانات الأخرى طالما أنهم لا يظهرون العداء للإسلام والمسلمين. ولذلك يتعامل المسلم المتبع للقرآن الكريم بودّ و رحمة مع أهل الديانات الأخرى وبخاصة أهل الكتاب.

إنّ موقف المسلم تجاه اليهودية ومحرقة الهولوكوست يجب أن يستند إلى تلك المعايير الأساسية. أمّا اليهود فيجب انتقادهم لما يقومون به من تصرفات عنصرية وسفك للدماء باسم الصهيونية وبقسوتهم على الآخرين تنفيذًا لأوامر التوراة المُحرَّفة. والمسلم يتمني أن يري نهاية للحركات العنصرية المعادية للسامية، وغيرها من الأيديولوجيات كالصّهيونية التي تمارس العنصرية باسم اليهود، كما يتطلع إلى تأسيس نظام سلام عالمي تستطيع كلّ الأجناس والمعتقدات العيش في ظله في أمن وعدل.

ضرورة احترام أماكن عبادة أهل الكتاب

يجب على المسلم أن يَحترم الأماكن المقدّسة التي يتعبد فيها أهل الكتاب وأن يؤمِّنها ويؤمِّنهم. وقدسية تلك الأماكن ترجع إلى أنّ الناس يهودا كانوا أو نصارى يذكرون الله فيها؛ فقد ذكر القرآن الكريم الأماكن التي يتعبد فيها أهل الكتاب كالصّوامع والأديرة والكنائس والمساجد بأنها أماكن عبادة يؤمنها الله تعالى:

﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]

ومن مظاهر طاعته لربه، حرص النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يهدم الأماكن المقدسة لدى أهل الكتاب حيث إنّ هدمها يُعد في المقام الأول عصيانا لأمر الله تعالى، كما أنه يمنع أهل الكتاب المؤمنين بالله من عبادته. وبالفعل بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم النصارى بمعاهدة سلام بحيث لا تُهدم كنائسهم ولا يُساء إليهم، وكان عقد الجزية معهم بمثابة ضمان حماية لكنائسهم.

أما المعاهدة الأولى التي كفلت تأمين الكنائس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فكانت معاهدة الجزية التي عقدها خالد بن الوليد مع قائد مدينة أناة. ويروي ابن إسحاق أن معاهدة خالد بن الوليد تلك قد نالت استحسان أبي بكر والخلفاء الثلاثة من بعده رضي الله عنهم [١٩]. بالإضافة إلى ذلك مَدَّد أبو بكر أيضا

المعاهدة التي عقدها النبي صلي الله عليه وسلم مع أهل نجران .

كما أنّ المجتمعات الإسلامية التي التزمت بأخلاق الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أبدت اهتمامها بهذا الموضوع. فقد احترم القادة المسلمون، الذين التزموا بالقرآن والسنة، الأماكن المقدسة لدى غير المسلمين في البلاد المفتوحة، وأبدوا سماحة عظيمة تجاه رجال الدّين والكهنة، فلم يحدث أبدًا أن قام المسيحيون بثورة لأسباب دينية في ظل الحكم الإسلامي الذي استمر قرونا متطاولة. وهذا بلا شك نتيجة للعدل والتسامح وما أبداه المسلمون من أخلاق حسنة امتثالا لأوامر القرآن الكريم.

الأمن الذي تعيشه المجتمعات التي تعيش في ظل العدل

ذكرنا في الفصول السابقة نوع العدل المشار إليه في القرآن الكريم، كما ذكرنا موقف المسلمين تجاه أهل الكتاب وسياسة النبيّ محمد صلي الله عليه وسلم التي اتسمت بالعدل والتسامح. إننا حين ننظر إلى التاريخ، نجد أنّ العدل الذي تأسس في حياة الأنبياء قد امتد وجوده تحت حكم القادة الذين أقاموا العدل من بعدهم. كذلك بعد مُضِيِّ عهد النبي صلي الله عليه وسلم، أقام العدلَ خلفاءٌ التزموا بتعاليم القرآن الكريم واتبعوا خطوات الرسل فقاموا بتأسيس مجتمعات تتميز بالأمن والسّلام، حيث عمّها العدلُ الحقيقي الموصوف في القرآن الكريم، والحقُّ والصدقُ لتقوم بذلك في عهد هؤلاء الناس ممالكُ هي نماذج يجب على من يأتي بعدهم أن يتخذها منهجًا ونبراسًا.

بعد اعتناقهم للإسلام، قام الأتراك أيضا بتأسيس مجتمعات تَميَّز حكمها بالعدل والتسامح والأمانة. وسنرى لاحقا أنّ هذه الحقيقة يؤكدها المؤرخون الغربيون. كما أنّ الباحثين الذين عاشوا تحت الحكم التركي الذي استمر قرونا

مديدة قد عبروا أيضا بأمانة عن تلك الحقيقة. وهنا يَقفزُ إلى الأذهان فورًا مثالان عظيمان للحكم التركي، وهما دولة السلاجقة العظمى والدّولة العثمانية، فتحت حُكْم هاتين الدّولتين تمتع كثير من الناس بالعدل الاجتماعي والعيش في أمن وسلام.

حكام مملكة السّلاجقة العظمى الذين أقاموا العدل

مع اعتناق الأتراك للإسلام، حكم الخانات والسّلاطين وفقا لتعاليم الإسلام "الخان لقب يُطلق تعظيما لحاكم طائفة تركية أو لسلطان عثماني". وقد شهد انتشار الإسلام في عهد هؤلاء القادة إنجازاتٍ حميدةً وفتوحاتٍ عظيمةً وغيرَ ذلك من عظائم الأمور، وكلّ ذلك بفضلٍ ما في القرآن الكريم من توجيه وإرشاد وحثٍّ على العدل. يقول الباحث البريطاني السير توماس أرنولد في كتابه "انتشار الإسلام في العالم" مُوضِّحا رغبةَ المسيحيين في أن يكونوا تحت حكم السلاجقة:

> "نفسُ الشعور بالأمان في الحياة الدينية تحت حكم المسلمين أدَّى ببعض المسيحيين في آسيا الصغرى إلى الترحيب بقدوم السلاجقة الأتراك ... وفي عهد ميشيل الثامن "١٢٦١ – ١٢٨٢ " كان السكان دائما ما يَدْعون الأتراك للاستيلاء علي المدن الصغيرة داخل آسيا الصغرى، لعلهم يتخلّصون من الطغيان. وغالبا ما كان الفقراء والأغنياء يهاجرون على حد سواء إلى داخل مناطق السيادة التركية" [٢٠].

وإبَّان العصر الذهبي لمملكة السلاجقة الإسلامية، كان الحاكم مالك شاه حريصا أشدّ الحرص على تطبيق أحكام القرآن الكريم. وكان تعامله مع أهل البلدان المفتوحة متميزًا بالتسامح والرحمة، ولهذا السّبب كان لا يُذكر

عندهم إلا بالتقدير والاحترام. ويصف المؤرخ الأرميني ماتيوس أرفا مملكة السلاجقة العظمى بهذه الكلمات:

"لقد كان عهد مالك شاه مباركا من عند الله، فقد امتد ملكه إلى أبعد الأقطار، وهو الذي منح السلام للأرمينيين، لقد كان التعاطف يملأ قلبه نحو المسيحيين، كما كان تعامله أبويا مع أهل البلاد التي مرّ بها، ولذلك أذعنت له الكثير من المدن والمقاطعات لتكون تحت حكمه بكامل إرادتها، حتى وصل سلطانه إلى جميع المدن الرومانية والأرمينية" [٢١].

لقد أشار جميع المؤرخين الموضوعيين في كتاباتهم إلى عدل مالك شاه وتسامحه، إذ كان تسامُحه سببا في إذكاء مشاعر الحبِّ نحوه في قلوب أهل الكتاب. ولهذا السبب دخلت مدن كثيرة تحت حكمه بكامل حريتها في واقعة لم يحدث لها مثيل من قبل. يذكر السّير توماس أرنولد أيضا ما أورده الراهب أودو دو ديوجيلو، راهبَ كنيسة ست دينيس الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية بصفته واعظًا خاصّا للملك لويس السابع، فقد أورد في مذكراته العدل الذي أقامه المسلمون في جميع الأمور بغض النظر عن صلتها بالدّين، وكتب السير توماس أرنولد بناء على البيانات المصورة لأودو دو ديوجيلو ما يلي:

"لقد كان موقف الناجين ميئوسا منه بالتأكيد لولا أنّ منظرهم البائس قد أذاب قلوب المحمديين شفقة عليهم، لقد خدموا المرضى وأعانوا الفقراء والجوعى في تسامح منقطع النظير، حتى إنّ بعضهم قام بشراء نقود فرنسية من اليونانيين، الذين استولوا عليها من الحُجَّاج بالقوة أو الاحتيال، وقاموا بتوزيعها على المحتاجين بسخاء بالغ. هذا التناقض الواضح بين المعاملة الطيبة التي لقيها الحُجَّاج على أيدي غير المؤمنين والمعاملة القاسية من إخوتهم المسيحيين اليونانيين الذين قاموا بفرض أشقّ الأعمال عليهم، وضربهم وسرقةِ ما تبقى من أمــوال قليلة معهم أدى إلى اعتناق الكثير منهم لعقيدة محرريهم طوعًا". [٢٢]

ويروى أودو دو ديوجيلو الأحداث التي واجهها خلال الحملة الصليبية

الثانية متحدثا عن مدى تأثير أخلاق التّسامح والرّحمة والعدل التي لمسها من المسلمين:

"لقد انضم للأتراك ما يزيد على ثلاثة آلاف من المتقاعدين، بحسب ما سمعنا تجنبا للقسوة التي واجهوها من قِبَل إخوانهم في الدين، مُؤْثرين الانضمام إلى الكافرين الذين عاملوهم بالرحمة .... وبالرّغم من الخدمات التي قدموها، إلاّ أنهم لم يُجبروا أحدا على تركِ دينه". [٢٣]

وتوضح تصريحات المؤرخين تلك أنّ أخلاق القرآن تأمر بإقامة العدل في الحروب وغيرها من الأوقات العصيبة.

كما تشير تلك الأخلاق الحميدة التي تَحلَّى بها المسلمون الأتراك، في وقت كان المستبدون يحكمون العالم إلى التزامهم بالقرآن الكريم وإلى سُمُوِّ طبائعهم. ولذا كان من المؤكد أن تلين قلوب أيّ أمة أو مجتمع نحو الإسلام حين يرون هذه الأخلاق السّامية التي يتحلّى بها المسلمون كما حدث مع الصليبيين الغزاة.

الخلافة العثمانية تقيم العدل في البلاد التي تفتحها

في المجتمعات التي يلتزم فيها الناس بأوامر القرآن الكريم، نجد حياتهم الاجتماعية تتسم بالأمن والسكينة. وتؤكد الحقائق التاريخية تلك الظاهرة. وتعدّ الإمبراطورية العثمانية نموذجًا لتلك الحكومات العادلة، فقد كانت في أول الأمر ولاية صغيرة ما لبثت أن اتسعت سريعا متفوقة على المملكة البيزنطية حتى شملت مساحاتٍ شاسعةً من الأرض كجنوب غرب آسيا، وشمال شرق إفريقيا، وجنوبٍ شرق أوروبا. وما زلنا حتى نرى آثار

الإمبراطورية العثمانية في البلقان والشرق الأوسط وشمال إفريقيا . لقد حكم المسلمون في تلك الإمبراطورية على نحوٍ يُظهِر الأخلاق النبيلة التي تُميز الملتزمين بالعقائد الإسلامية. ويستطيع الإنسانَ أن يفهم مدى تأثير العثمانيين من هذا الاقتباس المأخوذ من مُؤَلَّف " التاريخ التّركي" الذي ألفه لامارتين "١٨٥٤" في عشر مجلدات:

"اذهب إلى أزمير أو استنبول أو سوريا أو لبنان، اذهب إلى الأديرة والأماكن المقدسة والمؤسسات التربوية هناك، انظر إلى الأماكن التي يتلقى فيها الناس تعليمهم الديني، واسألهم: "هل أخطأ العثمانيون في مواقفهم نحوكم أو قصَّروا في حمايتكم؟ " سيخبرك الجميع عن "نزاهة التعامل من قِبَل العثمانيين وسلاطينهم" ... حقا لقد تولى السّلاطين العثمانيون إدارة الأماكن الدينية في حياد واحترام وسلام...". [٢٤]

توالى السلاطين العثمانيون، بدءا من السلطان عثمان غازي مؤسّس الدّولة العثمانية مرورًا بالسلطان محمد الفاتح، وغيرهما من السّلاطين الذين أصبحوا قدوة للعالم بأسلوبهم الراقي وعدالتهم في الحكم. ففي ظل حكمهم تعايش الناس من مختلف الأديان والعقائد جنبا إلى جنب في أمن وسلام. بالإضافة إلى ذلك، أذعن الكثير من المجتمعات بكامل حريتهم للسلطان محمد الفاتح ليكونوا تحت حكمه دون أي مقاومة، وهذا وحده يدل على مدى ارتياحهم لما لمسوه من العدل في تعامله.

وكما هو الحال في جميع الولايات الإسلامية، تعامل السلاطين العثمانيون مع غير المسلمين في البلاد المفتوحة بعدل كامل. [٢٥] وسبب ذلك أنّ أهل البلاد المفتوحة كما يقول القرآن الكريم أمانة من الله في أعناق السلاطين؛ فقد كانت مسئوليتهم حماية هؤلاء الناس وتأمينهم من عدوان الآخرين عليهم، وبالفعل حكم السلاطين بالعدل. وكان الهدف الرئيس لهؤلاء السلاطين جلْبُ الرفاهية

إلى البلاد المفتوحة بعكس ما فعلته الممالك الأوروبية التي عَرَّضت أهالي البلاد التي حكمتها للإبادة الجماعية والقسوة، واستنزفت جميع الموارد الطبيعية لتلك البلاد. ولم يلجأ السلاطين أبدا لإجبار المواطنين على الدّخول في الإسلام، بل مكّنوهم من ممارسة عبادتهم في سلام بشتى الوسائل. [٢٦]

لم يتدخل الأتراك المسلمون أبدًا في لغة المواطنين أو دينهم أو في الهيكل الاجتماعي والإداري لهم، وإنما تم الحفاظ على ثقافات هؤلاء الناس. ولذلك تمكن الناس ذوو الديانات واللغات والثقافات المختلفة من التعايش سويّا في سلام وتجانس في مناخ اجتماعي واحد. وفيما يتعلق بهذا الموضوع يذكر المؤرخ أندريه ميكويل ما يلي:

"لقد عاشت الطوائف المسيحية في ظل حكومة جيدة لم يشهدوا لها مثيلا أثناء العهدين البيزنطي واللاتيني، فلم يتعرضوا لاضطهاد مُتعَمَّد أبدا، بل على العكس أصبحت الإمبراطورية وبخاصة استنبول، مأوى لليهود الأسبان المُضطهدين، كما أنّ الناس لم يُجبَروا أبدًا على الدّخول في الإسلام بالقوة، وإنما حدثت حركات التحول إلى الإسلام نتيجة لعوامل اجتماعية". [٢٧]

لقد هيأت الأراضي التركية، التي حُكِمت وِفقا للعدل الإسلامي، معيشة رحبة للناس من مختلف الأديان. لم يتعرض غير المسلمين بالأراضي العثمانية في الأناضول وأوربا لأيّ مشاكل في حياتهم الاجتماعية أو الدينية. [٢٨] كما لم يحدث تمييز بين الناس بسبب اختلافهم في الجنس أو اللغة أو الأصول العرقية، والسبب في ذلك هو التزام السلاطين العثمانيين وتمسّكهم بالقرآن الكريم مما أدّى إلى تمتع الناس من مختلف السلالات بالعدل الاجتماعي. ويؤكد المؤرخ إسماعيل حقي أوزون تشارشلي في كتابه "التاريخ العثماني" على أنّ العدل المطلق للأتراك كان بمثابة الخَلاص لدى غير المسلمين:

"إنّ السبب الرئيس وراء اعتبار غير المسلمين للحكومة التركية بأنّها الخلاص

هو احترام الأتراك للمشاعر الدينية لدى غير المسلمين". [٢٩]

ويصف المؤرخ الأوربي ريتشارد بطرس كيف أنّ المسلمين الأتراك قد أقاموا عدلا نموذجيا في البلاد التي فتحوها:

"تولى الأتراك حكم أمم عديدة لعهود مديدة إلاّ أنهم لم يحاولوا تقييدهم، بل منحوهم حريتهم ومكنوهم من العيش وفقا لمبادئهم الدينية وثقافتهم الخاصة بهم". [٣٠]

برهنت كل الأمثلة السابقة على أن المسلمين الأتراك لم يَسْعَوا يوما لاستغلال موارد البلاد التي فتحوها. لقد احترموا حقوق جميع رعيتهم، كما أنّ العثمانيين والسلاجقة قد أخذوا على أنفسهم عهدا بحماية كل فرد يعيش على أراضيهم؛ ومن ثَمَّ تمتع الناس من مختلف القوميات والأديان بالعيش في سلام دون أي نزاع بينهم. ولولا إقامة القادة العثمانيين للعدل مع هؤلاء الناس لما نجحوا في تأسيس تلك الإمبراطورية الراسخة وإبقائها آمنة عهدا طويلا. ومهما يكن من أمر، يتبين لنا أن مَيْزاتِ القرآن وقيمَه السامية قد منحا هؤلاء القادة سندًا قويّا مَكنَهم من أن يُحققوا مستوى راقيا فيما بنوه من حضارة وثقافة.

إقامة العدل في الفترات الأولى من الخلافة العثمانية

منذ السّنوات الأولى لنشأتها، تبنّى مُؤسسوا الإمبراطورية العثمانية مبدأ إقامة العدل والإنصاف في حكمهم للطوائف المتعددة من المؤمنين وغير المؤمنين، ولم يحدث أبدًا أن أكرهوا أحدًا ليدخل في الإسلام. لقد كانت إقامة العدل أهم أولوياتهم.

قام عثمان غازي، مؤسس الدّولة العثمانية، بتكوين صداقات قوية مع جيرانه

من غير المسلمين الذين يعيشون حول بلاده. ونتج عن ذلك توطيدٌ للثقة المُتبادَلة بينهم.

على سبيل المثال، استأمن عثمان غازي غيرَ المسلمين في بيليجيك على ممتلكاته، قبل أن يأخذ أهله إلى الباب العالي في موسم الربيع، وبعد عدة أشهر عاد إليهم محملا بالهدايا مثل الجبن والزبد والسّجاد [٣١]. كما قامت أيضا سوق "إليجا إسكي شهير" إحدي مقاطعات مملكة عثمان غازي، بجذب غير المسلمين من المناطق المجاورة بفضل ما كان فيها من الأمن [٣٢]. ومن ثَمَّ توطّدت العلاقات الدافئة مع غير المسلمين في عهد عثمان غازي.

ينقل لنا المؤرّخ جوزيف فون هامر في كتابه "التاريخ العثماني" حادثة تُمجد ما قام به عثمان غازي من إقامة العدل مع الناس جميعهم دون تمييز في الدين:

"في أحد الأيام، جلب بعض التّجار غير المسلمين من بيليجيك شحنة أكواب من الزجاج إلى السّوق. وقام أحد المسلمين بشراء هذه الأكواب إلا أنه لم يقم بتسديد ثمنه إلى التاجر، فاشتكى إلى عثمان غازي. وعلى الفور قام عثمان غازي باستدعاء هذا المسلم، وأخذ منه الثمن وأعطاه إلى التاجر غير المسلم، ثمّ قام بإرسال مناد في المدينة ليدعو الناس إلى تحاشى الظلم مع غير المسلمين في بيليجيك. كماً أن النساء غير المسلمات كنّ يأتين إلى السّوق لشراء حاجاهن في أمان ممّا يُدلل على الحكم العادل الذي أقرَّه عثمان غازي. وقد شعرت الطوائف غير المسلمة بالأمان في عهد عثمان غازي. وعندما سُئل عن دقته البالغة في إقامة العدل تجاه غير المسلمين، أجاب: "إنّهم جيراننا الذين رحّبوا بنا عندما وطأت أقدامنا هذه الأرض لأول مرة، فالواجب علينا أن نحترمهم". [٣٣]

ولا شكّ أنّ هذا السّلوك الرّاقي الذي قام به عثمان غازي هو تطبيق عملي لقوله تعالى:

﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء : ٣٦]

هذا السّلوك الممتثل للأوامر القرآنية كان سببا لدخول الكثير من الناس في الإسلام. بعد فتح "ياري حصار" و"إنَجول" و"بيليجيك" و"يني شهير" " أسماء لمدن في منطقة الأناضول" وغيرها من المدن المجاورة، تعامل عثمان غازي مع أهل هذه المدن غير مسلمين بالعدل والتسامح، ولم يُصادِر أراضيهم. حقا لقد أتى الحُكم العثماني بالرفاهية لهؤلاء الناس وجعل أرضهم أصلح للعيش في وقت قصير جدًّا. بالإضافة إلى ذلك، جذبت تلك المدن الآمنة الكثيرين من غير المسلمين الذين أتوا للعيش والاستقرار على الأراضي العثمانية [٣٤]. لو لم يقم عثمان غازي بتأمين بيئة يعمها العدل والتسامح والسّلام، كما يأمر الإسلام، لربّما تبنَّى أهل البلدان التي فتحها المسلمون مواقفَ عدائية نحوهم، إلاّ أنّ عثمان غازي كان رجلاً مؤمنًا ملتزما بأوامر الله تعالى، فأقام العدل. كما أنّه حضر بعضا من أعراس غير المسلمين, وأهداهم الهدايا، وهذه الأفعال تؤكّد عدله واحترامه لغير المسلمين. [٣٥]

يروي جوزيف فون هامر في كتابه "التاريخ العثماني" مثالا آخر لعدل عثمان غازي فيقول:

"في أحد أيام الجمعة، تشاجر مسلم من رعايا الحاكم التركي من أليشير مع مسيحي من رعايا الحاكم الروماني لمدينة بيليجيك، وحكم عثمان بينهما، وتبين له أن المسيحي بريء، ومنذ ذلك الحين أصبح الناس في شتى أنحاء المملكة لا حديث لهم إلا عن عدل عثمان وأمانته. " [٣٦]

بالإضافة إلى ذلك، يُحكى أنه قُبيل وفاته، أمر ولده أورخان أن يحفظ العدل في رعيته، وأن يحسن إلى من يطيعونه [٣٧] . لقد وصلت سمعة عثمان إلى أقصى البلاد، وانتشر خبر عدله في الآفاق، ولهذا السبب لم يكن ولده أورخان غازي في حاجة إلى القتال من أجل الاستيلاء على بيرسا " إحدى مدن الأناضول"، إذ قام ساروز حاكم المدينة بتسليم القلعة طواعية إليه، ولمّا سأله أورخان غازي عن السبب أجاب: إنّ من أعلنوا الولاء لأورخان عاشوا في سلام، وهذا ما يتطلع إليه شعبى منذ أمد بعيد [٣٨]. وتؤكد صدق تلك المشاعر إجابة الرومانيين في بيرسا عن نفس السؤال:

"لقد رأينا مملكتكم تكبر يوما بعد يوم حتى تفوقت علينا، وسمعنا عن سعادة الفلاّحين الذين كانوا تحت حكم والدك، ولما كان الأمر كذلك فلا يسعنا إلا أن نكون مثلهم" [٣٩].

جريجوري بالاماس رئيس أساقفة سالونيك، الذي وقع في أسر العثمانيين عام ١٣٥٥ يُقر بوضوح في رسالة له بتسامح أورخان غازي وموظّفيه مع المسيحيين، ويؤكد على أنّ المسيحيين قد نالوا كامل حريتهم داخل الأراضي العثمانية، ويقول بأنّ سليمان باشا، ابن أورخان غازي قد سأله بعض الأسئلة عن المسيحية، كما أنّ السلطان أورخان نفسه تناقش معه، وكذا فعل بعض شيوخ المسلمين وعلمائهم. [٤٠]

إنّ تسامحَ أورخان غازي والعدلَ الذي أقامه لم يكونا مقصورين على

الطوائف المسيحية فحسب، بل إنّ اليهود أيضا استفادوا من العدل النابعِ من روح الإسلام النبيلة متمثلا فيما قام به أورخان غازي؛ فقد استقبلَ اليهودُ في أدرنه ومدن ثراس الأخرى الفتحَ العثمانيَّ بالترحاب وذلك بعدما فقدوا كل عزيز لديهم تحت حكم الأنظمة الأخرى. [٤١]

وقد استمرت تلك المواقف النبيلة من قِبَل السلاطين العثمانيين تجاه اليهود في عهد السلطان مراد الأول، ويصف المؤرخ البيزنطي تشالكونديلاس عدل السلطان مراد وتسامحه فيقول:

> "لقد نال كل الذين أطاعوه معاملة طيبة رحيمة بصرف النظر عن دينهم، أما هو فكان صارما مع أعدائه فحسب، فلم يستطع أحد منهم الإفلات من قبضته، لقد نال ثقة كل الناس أصدقاءً كانوا أو أعداءً، لأنه كان يوفي بالعهود، بالرغم من كونها قد تعارض مصالحه في النهاية". [٤٢]

يصف المؤرخ البريطاني جيبون تسامحَ السلطان مراد نحو المسيحيين فيقول إن تعامله مع الأرثوذكس كان أفضل مما تعامل به الكاثوليك معهم. [٤٣]

تكشف كل هذه الأمثلة النقابَ عن السبب وراء النفوذ العظيم الذي حققته الإمبراطورية العثمانية سريعا منذ السنوات الأولى لنشأتها. فقد كان لمواقف الحُكَّام العادلةِ تجاه أهل الديانات المختلفة أثرًا إيجابيا مَكَّن العثمانيين من أن يبسطوا حدودَ مملكتهم إلى أبعد القارات. كما أنّ أهم سبب وراء استمرار ذلك الاتساع في عهود السلاطين الآخرين يتمثل في العدل والتسامح نفسه. إنّ المجتمع الذي أسّس السلطان محمد الفاتح بنيانه على العدل والتسامح يُعدّ حقيقة يعترف بها جميع المؤرخين.

إقامة العدل الحقيقي في
عهد السلطان محمدالفاتح

الفتوحاتُ التي تمَّت في عهد السلطان محمد الفاتح جعلت حدودَ مملكته تمتد في ثلاث قارات, وكان فتح استانبول مؤشرًا لبداية عهد جديد. فقد كان هذا الفتح مَعْلما من معالمِ التاريخ الأوروبي والتركي على حدّ سواء. وقد أقام السلطان محمد العدلَ والتسامحَ, تمامًا مثلما أمر الإسلام, على أهل تلك البلاد المفتوحة.

وقد وَثَّق السلطان محمد تسامحه مع هؤلاء الناس بالمعاهدات التيٍ أبرمها معهم. وكان تسامحه هذا نابعًا من عقيدته الإسلامية، وكان شاملاً لكلّ الناس كاليهود والأرمن والسوريين الأرثوذكس[٤٤] وكان هذا سببًا في رضا كثير من الأمم بأن تكون تحت حكمه، ويؤكد تلك الحقيقة كلامَ الدوق الكبير لوكاس نوتاراس القائد البيزنطي: "إنّني أفضل أن أرى العمامة التركية في بيزنطا على أن أرى التاج اللاتيني" [٤٥].

كان فتح السلطان محمد لاستانبول سببا أساسيا للفزع بين غير المسلمين؛ فقد خاف معظم هؤلاء مما سوف يلاقونه من التمييز والاضطهاد والعدوان، ولذلك فرّوا من استانبول أو احتشدوا في كنيسة آيا صوفيا. إلاّ أنّ معاملة السلطان محمد لهم بالعدل والتسامح خلّصهم من تلك المخاوف فعادوا إلى بيوتهم مُزاولين حياتهم اليومية بالشكل المعتاد [٤٦]. كما سمح لهم بأن يعيشوا وفقًا لأديانهم وأحكامهم، وضمن لأصحاب العقائد المختلفة أن يمارسوا واجباتهم الدينية دون أيّة عقبات [٤٧]. وعاش علماء المسلمين والمسيحيين جنبًا إلى جنب داخل بلاط الحكم وتناقشوا معا في بعض

القضايا في جوٍّ من التسامح.

وقد حاول السلطان محمد الفاتح أن يتعلم عقيدة المسيحيين من أحدهم [٤٨]، ومنح البطريك مرسومًا إمبراطوريا يسمح للطائفة المسيحية باتباع قوانينهم الخاصة لإدارة شئونهم اليومية. كما أعطى البطريك حرّيةً هائلةً كانت سببًا في امتلاكه حكمًا ذاتيا ضمن الحكم التركي [٤٩] . وقد نشر المؤرخ هامر نسخة من المَرسوم الملكي جمعهَا من مصادر غربية وشرقية، وكتب هذا الاقتباس من الإعفاء الذي أرسله السّلطان إلى البطريك:

"غير مسموح لأحد مهما كان منصبه أن يضطهد البطريك أو يضايقه، البطريك وكلّ من في خدمته من الكهنة الموقرين يتمتعون بإعفاء من جميع أشكال الخدمات لأمد غير محدود". [٥٠]

بدأ السلطان محمد الفاتح بعد الفتح مباشرة في التعامل مع الحقوق القانونية للأقليات، وقام بتعيين جيناديوس ليكون بطريك الطائفة الأرثوذكسية–اليونانية ووَقَّع معاهدةً معهم، كما وَقَّع معاهدةً أخرى مع أهل الكتاب في غلاطه " إحدى مقاطعات استنبول"، وأكد لهم أن كنائس غلاطه لن تُصادَر ولن تُحول إلى مساجد، وأنه لن يحدث إكراه لأحد من أهل الكتاب لاعتناق الإسلام [٥١] . ووُقعت معاهدة أخرى في نفس الوقت للسّماح للزّعماء الروحيين الذين يُدْعَوْن" المطارنة" بمزاولة أعمالهم على النحو المعتاد. [٥٢]

وبعيدًا عن حقوق المسيحيين، اهتمَّ السلطان محمد بحقوق اليهود أيضا. فقد منحهم الحق في أن يكون لهم معابدهم وحاخاماتهم وأن يمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة. كما دعا السلطان محمد الحاخام موسى كابسالي " الحاخام الأول في العهد العثماني " إلى القصر، وأثنى عليه ومنحه مرسومًا امبراطوريا يسمح له بأن يحكم في الحالات التي

تختص باليهود. [٥٣]

هذه التطورات التي حدثت على يد السلطان محمد بعد فتح استنبول امتدت إلى عهود السلاطين العثمانيين من بعده؛ حيث مدّ الجيش العثماني حدود الإمبراطورية إلى فيينا، ففُتحت منطقة البلقان كلها، وضُمَّت صربيا وألبانيا والبوسنة والهرسك والأفلاق والبغدان وبلاد البلقان إلى الإمبراطورية العثمانية، وأصبحت هنغاريا تحت حمايتها. كما امتد النفوذ العثماني ليشمل الأراضي المطلة على البحر، وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية. وانضم العديد من الجزر في إيجه مثل شبه جزيرة مورا، ورودس، وكريت، وتشيوس، والقوقاز، ووالعديد من البلاد مثل بغداد وتبريز واليمن وسوريا والعراق ولبنان ومصر وفلسطين والقدس والمغرب وتونس والجزائر وشرق الأناضول وطريق سبايس وبولندا والعديد من البلدان الأخرى التي انضمت إلى الإمبراطورية العثمانية. لقد تعايش أهل الديانات المختلفة في سلام داخل البلاد المفتوحة. ولم يحدث اضطهاد لأحد بسبب دينه أو لغته أو جنسه .

إنّ أقصى ما نتمناه في عالمنا اليوم هو ذلك النموذج الذي يعمّ فيه العدل والتسامح، والطريق الوحيد لإنجاز مجتمع كهذا هو العَيْش في ظل القيم القرآنية. والأمثلة التي ذُكرت تؤكد أنّ القادة الذين التزموا بأوامر القرآن الكريم حققوا بالفعل ازدهارًا عظيمًا مع الأمم التي تولوا قيادتها. فعندما تمسك كل فرد من أفراد المجتمع، بمختلف طبقاته، بقيم القرآن الكريم ما لبثت قيم العدل والتسامح والرحمة والمحبة والرأفة والأمانة أن عمّت أرجاءِ المجتمع حاملة معها السّلام والتجانس في الحياة الاجتماعية.

ليس هناك أيّ عذر يَحُول دون إمكانية تأسيس مثل هذا المجتمع مرة أخرى. إنّ الشرط الوحيد اللازم لقيام هذا المجتمع هو النيَّة الصادقة للعيش بقيم القرآن الكريم وبذل الجهود جديا لنشر تلك القيم في المجتمع بأسره.

خـــــاتمة

في هذا الكتاب تعاملنا مع إدراك المؤمن فيما يتعلق بالعدل ومع نوع المجتمع الذي تُبنى ركائزه على نحو يعمّ فيه العدل والتسامح. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنّ جهود الناس حين تُبذل لإقامة العدل فإنها أيضا تعكس حرصهم على التمسك بدين الله واتباع أوامره.

ولهذا يجب على كل مسلم ملتزم بالقرآن الكريم أن يعيَ المفهوم الحقيقي للعدل. فالمسلم مطالب بأن يحكم بالعدل وبأن يظهر التسامح بنفس الطريقة التي يُظهر فيها حرصَه الشديد على تنفيذ أوامر الله .أما إذا حدث العكس فمعناه الإيمانُ ببعض القرآن والكفرُ بالبعض الآخر. ويلفت الله انتباهنا فى القرآن الكريم إلى هذا الخطأ الذي قد يقع فيه كثير من الناس:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]

والمسلم يعلم جيدًا مدى شدة عذاب الله حين يتوعد به. فالله تعالى

هو العدل وحكمه بين عباده عدل مطلق سوف يحكم به في الآخرة تماما كما يحكم به في الدنيا، فسوف يحاسب الناس على كل عمل قاموا به في حياتهم سواء كان هذا العمل كبيرة أو صغيرة، وسوف يحاسبهم أيضا على كلّ لفظ نطقوا به وكل فكر ورد بأذهانهم وستكون النتيجة إما النعيم الأبدي في الجنة أو العذاب الأليم في جهنم.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس : ٤]

ولهذا السبب يتجنب المسلم أيّ سلوك لا يُرضي الله عز وجل. إنّ الحياة الاجتماعية التي تميزت بالأمن والتسامح في عهد النبي صلي الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ومن تلاهم من الحكام الذين أقاموا العدل قد اعتمدت على تعاليم القرآن الكريم .

وكما ذكرنا في هذا الكتاب ، فالمسلمون لهم تاريخ مشرف مع العدل والرأفة والتسامح والرحمة وما أظهروا من الضمير وما ملكوا من القيم النبيلة. ومن ثَمَّ فليس هناك أي مبرر يمنع مسلمي اليوم من التعلم من تجارب الماضي لكي يُعيدوا إقامة العدل في الأرض وليضعوا نهاية للظلم والقسوة. هناك شيء أساسي يتوجب فعلُه، وهو الوحدة والكفاح من أجل الحصول على العدل الحقيقي الموعود في القرآن الكريم

انهيار الدّاروينية

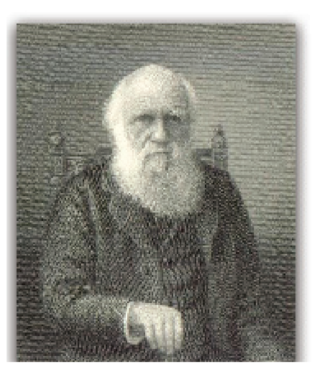
لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام ١٩٨٠ بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت

من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.



شارلز داروين

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام ١٨٥٩. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

١-لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

٢-لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها

النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

٣-مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ ٣,٨ ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام،

وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام ١٨٦٤:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة." [٥٤]

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي:

" للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور الأنظمة الحية". [٥٥]

حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام ١٩٥٣. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية. [٥٦]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً. [٥٧]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام ١٩٩٨:

"ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟" [٥٨]

البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال

تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي ١ إلى ١٠^٩٥٠ وهذا بالنسبة لبروتين مكون من ٥٠٠ حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من ١٥٠ مستحيلاً!

إن جزيء الـ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من ٩٠٠ مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من ٥٠٠ صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الـ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف. وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام ١٩٩٤:

إن الطفرات الوراثية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أن تظيف معلومات جديدة لـ DNA : فالأجزاء التي تكون المعلومات الجينية عندما تنزع من أماكنها إما أن يحدث لها خراب أو تنتقل إلى قسم آخر من الـ DNA، فالطفرات الوراثية لا يمكن أبدا أن تكسب الكائن الحي عضوا جديدا أو ان تمنحه خاصية إضافية. ما يحدث من جراء الطفرات الوراثية أمور غير عادية كأن تخرج الرجل من الظهر أو تخرج الأذن من البطن.

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"[٥٩]

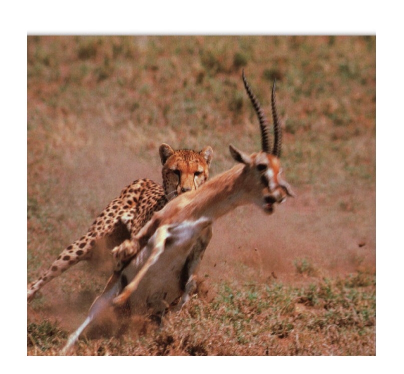
لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة



ليس هناك أي مكسب حصل لنظرية النشوء والإرتقاء من فكرة الانتقاء أو الاختيار الطبيعي. ذلك لأن هذه الآلية لم تعمل في يوم من الأيام على تطوير المعلومات الجينية أو إغنائها لدى أي نوع من الأنواع. إنه لا يمكن لأي نوع أن يتغير إلى نوع آخر مختلف عنه؛ بمعنى أن التطور لا يمكن أن يغير نجم البحر فيصبح سمكة، أو يغير الأسماك فتصبح ضفادع، أو يغير الضفادع فتصبح تماسيح أو يغير التماسيح فتصبح طيورا.

أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:

"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية".[٦٠]

تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاها التي اكتسبتها خلال حياها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.

وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".[٦١]

إلا أنه ما لبث أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.



إنّ علماء الأحياء الذين هم من أنصار نظرية التطور قد أخذوا يبحثون عن نموذج مفيد للطفرات الأحيائية حيث عرَّضوا الذباب للطفرات الأحيائية منذ بداية القرن، إلا أنه في نهاية تلك المساعي والمجهودات لم يتم الحصول إلا على ذباب مريض، وعليل، وغير تام. ويوجد في الأعلى وعلى اليسار صورة لذبابة فاكهة طبيعية، وفي الأسفل وعلى اليمين توجد ذبابة فاكهة أخرى تعرضت للطفرات الأحيائية وخرجت سيقانها من رأسها، أما في أعلى اليمين فتوجد ذبابة فاكهة قد خرجت أجنحتها بشكل مشوه وذلك بالطبع نتيجة لما تعرضت له من طفرات أحيائية.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.

و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ـــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير

عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقييتنحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء."[٦٢]

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لـــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.

السجلات الإحاثية:

لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في

سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". [٦٣]



آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى.[٦٤]

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاء الدارويني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:

"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً.[٦٥]

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل الإنسان. يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من ٤-٥ ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

١-أوسترالوبيثيكوس

٢-هومو هابيليس.

٣-هومو أريكتوس

٤-هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[٦٦]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة:

" تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[٦٧]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.[٦٨]

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.[٦٩]

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.[٧٠]

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً

تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة ١٥ عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة– هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

> نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد. [٧١]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ــ إن شئتم ــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة ١٠ قوة ٩٥٠). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس

أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك

الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ــ رغم كل الإمكانيات ــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.

ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفذِ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا

الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ــ فيما يتعلق بأصل الحياة ــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

> "إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا ــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة". [٧٢]

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب

يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الداروني يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين هوبل (***Einstein Hubble***)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (***Frank Sinatra***) وتشارلتون هيستون (***Charlton Heston***)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم

علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخدامًا في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧]

وقوله أيضا :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ ١٥٠ عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول:

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١٦]

. وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩]

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعَّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

> "إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل". [٧٣]

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.


﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾
[البقرة: ٣٢]

المراجع

١ Majid Khoduri, Islam'da Savas ve Baris,
Fener Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٨, s. ٢٠٩
٢ Musned-i Ahmed b. Hanbel, ٥/٤١١
٣ Sunen-i Ebi Davud, ٤/٣٣١
٤ Musned-i Ahmed b. Hanbel, ٤/١٥٨, Ibnu
Kesir, ٤/٢١٨
٥ Hamidullah, Muhammed, Islam Muesseselerine
Giris, 3ev. ١. S. Sirma, Dusunce
Yayinlari, Istanbul, ١٩٨١, s. ٣٣٠; Yrd. Do3.
Dr. Orhan Atalay, Dogu-Bati Kaynaklarinda
Birlikte Yasama, Gazeteciler ve Yazarlar
Vakfi Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٩, s. ٨٧
٦ Arnold, T. W, Intisar-i Islam Tarihi (The
Preaching of Islam), 3ev. Halil Hamit, Ankara,
١٩٧١, s. ٦٨-٦٩
٧ Ibn Hisam, Ebu Muhammed Abdulmelik,
Es-Siretu'n-Nebeviyye, Daru't-Turasi'l-Arabiyle,
Beyrut, ١٣٩٦/١٩٧١, II/١٤١-١٥٠; Yrd.
Do3. Dr. Orhan Atalay, Dogu-Bati Kaynaklari
nda Birlikte Yasama, Gazeteciler ve Yazarlar
Vakfi Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٩, s.
١٤٩
٨ Majid Khoduri, Islam'da Savas ve Baris,
Fener Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٨, s. ٢٠٩-٢١٠
٩ Muhammed Hamidulllah, Islam Muesseselerine
Giris, Dusunce Yayinlari,Istanbul,
١٩٨١, s.١٢٨
١٠ Ibn Kesir, El-Bidaye, III/٢٢٤-٢٢٥; Hamidullah,
El-Vesaik, No:١, s.٣٩-٤٤; Dogu-Bati
Kaynaklarinda Birlikte Yasama, Orhan Atalay,
s.٤٠
١١ Muhammed Hamidulllah, Islam Muesseselerine
Giris, Dusunce Yayinlari, ١٩٨١,
s.١٦٢-١٦٣
١٢ Muhammed Hamidullah, El-Vesaik, s.
٤٤-٤٥

١٣ Majid Khoduri, Islam'da Savas ve Baris,
Fener Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٨, s. ١٢٣ ; Taberi,
Tarih I, ١٨٥٠
١٤ Hamidullah, Mecmuatu'l-Vesaik, ١٩٥-١٩٧
١٥ Frend, ٢٨٩; Hamidullah, Islam Peygamberi,
II. ٩٢٠; Levent Uzturk, Asr-i Saadetten
Ha3li Seferlerine Kadar Islam Toplumunda
Hiristiyanlar, Iz Yayincilik, istanbul,
١٩٩٨, s. ٥٥
١٦ Yrd. Do3. Dr. Orhan Atalay, Dogu-Bati
Kaynaklarinda Birlikte Yasama, Gazeteciler
ve Yazarlar Vakfi Yayinlari, Istanbul, ١٩٩٩,
s. ٩٥; Hamidullah, El-Vesaik, s. ٣٨٠-٣٨١,
No: ٣٥٨
١٧ Ibn Ishak'tan naklen Ebu Yusuf, ١٤٦; Levent
Uzturk, Asr-i Saadetten Ha3li Seferlerine
Kadar Islam Toplumunda Hiristiyanlar,
Iz Yayincilik, istanbul, ١٩٩٨, s. ٥٥
١٨ L. Browne, The Prospects of Islam, s.
١١-١٥, s. ٢٦٩-٢٧٠
١٩ Levent Uzturk, Asr-i Saadetten Ha3li Seferlerine
Kadar Islam Toplumunda
Hiristiyanlar, Iz Yayincilik, Istanbul, ١٩٩٨,
s. ١١١
٢٠ Yesevizade, Sevgi Peygamberi, Hakikati
Arayis Nesriyati, Ankara, ١٩٩٦, s. ٢٧٢-٢٧٣;
Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam,
s. ٩٧; Finlay: ٤A History of Greece, III,
٣٥٨-٩; J. H. Krause: "Die Byzantiner des
Mitte latters", Halle, ١٨٦٩, s. ٢٧٦
٢١ Osman Turan, Turk Dunya Nizaminin
Milli, Islami ve Insani Esaslari, Cilt ٢, s.
١٣٨
٢٢ Yesevizade, Sevgi Peygamberi, Hakikati
Arayis Nesriyati, Ankara, ١٩٩٦, s.٢٧٣-٢٧٤
٢٣ Yesevizade, Sevgi Peygamberi, Hakikati
Arayis Nesriyati, Ankara, ١٩٩٦, s.٢٧٤-٢٧٥;
Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam,
s. ٩٩-١٠١; Migne: 'Patrologia Latina',
Paris, ١٨٤٤-٥٥, tom. CXCV, s. ١٢٤٣

٢٤ Lamartine, Histoire de la Turquie,
١٨٥٤'den alinti. Hurriyet Gazetesi, ١٨ Ekim
٢٠٠٠, Ertugrul UzkUk
٢٥ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٦
٢٦ Prof. Dr. Nejat GUyunз, Osmanli Imparatorlug
u Hakkinda Bazi Dusunceler, Ayyildiz
Matbaasi, Ankara, ١٩٧٣, s. ٢٩
٢٧ F. Emecen, K. Beydilli, M. Ipsirli, M.A.
Aydin, I. Ortayli, A. Uzcan, B. Yediyildiz,
M. Kutukoglu, Osmanli Devleti ve Medeniyeti
Tarihi, Islam Tarih, Sanat ve Kultur
Arastirma Merkezi, Istanbul, ١٩٩٤, s. ٤٦٧
٢٨ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٤
٢٩ Ismail Hakki Uzunзarsili, Osmanli Tarihi,
١.cilt, ٤. Baski, Turk Tarih Kurumu Basimevi,
Ankara-١٩٨٢, s. ١٨٣
٣٠ Toktamis Ates, Osmanli Toplumunun Siyasal
Yapisi (Kurulus DUnemi), Say Kitap
Pazarlama, s. ١١٦; Richard Peters, "Geshichte
der Turken", s. ٨
٩٦ KURAN'DA ADALET VE HOfiGURU
٣١ M. Altay KUymen, Nesri Tarihi, Kultur ve
Turizm Bakanligi Yayinlari no- ٥٢٥, Ankara-
١٩٨٣, s. ٤٥; A. Nihat Atsiz, Asikpasaoglu
Tarihi, Kultur ve Turizm Bakanligi Yayinlari
no:٦٠٤, Ankara, ١٩٨٥, s. ٢٢
٣٢ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٤
٣٣ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٤-٢٥
٣٤ A. Nihat Atsiz, Asikpasaoglu Tarihi, Kultur
ve Turizm Bakanligi Yayinlari no- ٦٠٤, Ankara,
١٩٨٥, s. ٢٧
٣٥ Mehmet Nesri, Nesri Tarihi, s. ٥١-٥٢; A.

Nihat Atsiz, Asikpasaoglu Tarihi, Kultur ve
Turizm Bakanligi Yayinlari no- ٦٠٤, Ankara,
١٩٨٥, s. ٢٤-٢٥
٣٦ Joseph Von Hammer, Osmanli Tarihi, C.
I, Milliyet Matbaasi, Istanbul, ١٩٩٦, s. ٥
٣٧ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٦
٣٨ Mehmet Nesri, Nesri Tarihi, s. ٦٨
٣٩ Osman Turan, Turk Dunya Nizaminin
Milli, Islami ve Insani Esaslari, Istanbul:Turan
Nesriyat ve Matbaacilik, ١٩٦٩, Cilt ٢, s.
١٨٧
٤٠ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٦
٤١ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٦
٤٢ Yilmaz Uztuna, OsmanliDevleti Tarihi-١,
"Siyasi Tarih", Ankara:T.C. Kultur Bakanligi
Yayinlari/٢٠٦٨, ١٩٩٨, Cilt ١, s. ٧٧; Khalkokondylas,
Paris tab'i, s. ٢٩
٤٣ Yilmaz Uztuna, Osmanli Devleti Tarihi-١,
Cilt ١, s. ٧٧, (Oxford ١٩١٦, s. ٥٢)
٤٤ Sadi Bilgiз, Sizinti Dergisi, Aralik ١٩٩٧,
sayi ٢٢٧, s. ٥١٢
٤٥ Yilmaz Uztuna, Osmanli Devleti Tarihi-١,
s. ١٠٦
٤٦ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde
Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale
Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٩-٣٠
٤٧ Cumhuriyet Gazetesi, Fatih ve Fetih ٤,
Erdogan Aydin, ٣١ Mayis ٢٠٠٠, s. ٩
٤٨ Cumhuriyet Gazetesi, Fatih ve Fetih ٤,
Erdogan Aydin, ٣١ Mayis ٢٠٠٠, s. ٩
٤٩ Osman Turan, Turk Dunya Nizaminin
Milli, Islami ve Insani Esaslari, Turan Nesriyat
ve Matbaacilik, Istanbul ١٩٦٩, Cilt ٢, s.
١٩٠

٥٠. Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٨

٥١ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٢٩

٥٢ Osmanli Hukukuna Giris ve Fatih Devri Kanunnameleri, Fey Vakfi Yay., ١٩٩٠, s.٤٠٦

٥٣ Prof. Dr. Bilal Eryilmaz, Osmanli Devletinde Gayrimuslim Tebaanin YUnetimi, Risale Basin-Yayin LTD. Mart, ١٩٩٦, s. ٣١

٥٤. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, New York: Marcel Dekker, ١٩٧٧. p. ٢

٥٥. Alexander I. Oparin, Origin of Life, (١٩٣٦) New York, Dover Publications, ١٩٥٣ (Reprint), p. ١٩٦

٥٦. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol ٦٣, November ١٩٨٢, p. ١٣٢٨-١٣٣٠.

٥٧. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, ١٩٨٦, p. ٧

٥٨. Jeffrey Bada, Earth, February ١٩٩٨, v. ٤٠

٥٩. Leslie E. Orgel, "The Origin of Life on Earth", Scientific American, vol ٢٧١, October ١٩٩٤, p. ٧٨

٦٠. Charles Darwin, : A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, ١٩٦٤, p. ١٨٩

٦١. Charles Darwin,, p. ١٨٤.

٦٢. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, ١٩٨٨.

٦٣. Charles Darwin,, p. ١٧٩

٦٤. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol ٨٧, ١٩٧٦, p. ١٣٣

٦٥. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, ١٩٨٣. p. ١٩٧

٦٦. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, ١٩٧٠, ss. ٧٥-٩٤; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature,

vol ٢٥٨, p. ٣٨٩
٦٧. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, December ١٩٩٢
٦٨. Alan Walker, Science, vol. ٢٠٧, ١٩٨٠, p. ١١٠٣; A. J. Kelso, Physical Antropology, ١st ed., New York: J. B. Lipincott Co., ١٩٧٠, s. ٢٢١; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. ٣, Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٧١, p. ٢٧٢
٦٩. Time, November ١٩٩٦
٧٠. S. J. Gould, Natural History, vol. ٨٥, ١٩٧٦, p. ٣٠
٧١. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, p. ١٩
٧٢. Richard Lewontin, "Billions and billions of demons", The New York Review of Books, ٩ January, ١٩٩٧, p. ٢٨.
٧٣. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids: Eerdmans, ١٩٨٠, p. ٤٣